الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الدعوة العباسية

رأينا في الجزء الثاني من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضاً، وكيف استقرت على أصول ثابتة في نظرية الخلافة، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة في أبناء علي من بني هاشم، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حفدته وقد أوصى لأبيهم - فيما يذكرون - بالخلافة، وكان حزب الخوارج يرى أن ترد الخلافة إلى الأمة لتولي عليها الخليفة التقي الصالح من أعلامها، وكان حزب الزبيريين يرى أن ترد الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز، حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التي تؤازر الأمويين. بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبي المتوارث عند القياصرة والأكاسرة. ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضاً، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم في الكوفة لعهد المختار الثقفي الذي كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء علي والذي أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعي، على أن هذه الحركة سعران ما خمدت، غير أن التشيع ظل ملتهباً سراً، وتكوّن مذهب الزيدية، وقضى على صاحبه، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة. وامتشق

الخوارج الحسام في غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوخوهم، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا. ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالاً عنيفاً، مما هيأ لازدهار الشعر السياسي.

وإذا تحولنا إلى العصر العباسي وجدنا هذا الشعر يأخذ في الضعف، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التي يعبر عنها، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائياً منذ سنة ٧٢ للهجرة، ولم تقم له بعد ذلك قائمة، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحناً ولم تبق منه إلا بقايا ضعيفة، كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسي قضاء مبرماً، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحربها فحسب، بل أيضاً من حيث الشعر والشعراء. أما حزب الشيعة فقد ظل حياً في كثير من النفوس، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يقتلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصاباً. وكان العباسيون كما أسلفنا في غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية واصبحوا أوصياءها، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بني أمية، حتى قوضوا حكمهم، وأصبحوا ولاة الأمر وأصحاب السلطان، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة. حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوي هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته، واضطر إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا.

وعلى هذا النحو ظل الشيعة في العصر العباسي الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه، وتبعهم في تقرير نظريتهم كثير من الشعراء، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين، فكانوا ينظمون ما ينظمون سراً وقلما أعلنوه، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقية ويبالغ في مديحه، حتى ليصبح كأنه من دعاتهم. وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة في حجورهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين في الخلافة ويردون على العلويين منكرين حقهم فيها، مستلهيمن رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتي عرضنا لها في الفصل الأول، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث، إنما يحوزه العم وأبناءه كما

قرر الإسلام، ومن الغريب أنه لم يرتفع في هذه الأثناء صوت ثالث يقرر أن الخلافة في منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة في توليها الصالح من زعمائها، فهي ليست لقمة تستأثر بها أسرة خاصة، بل هي نظام يقوم على الشورى، هدفه الأساسي مصلحة الجماعة، وهى شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمي أم لم يكن، وسواء أكان قرشياً أم كان غير قرشي. وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة، فمضوا يصانعون العباسيين مذعنين لهم خاضعين.

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يحصوا ويستقصوا، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم في الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين، ولابد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميري يكثر من مديحه لهم، وقد مدح طويلاً أبا العباس السفاح والمنصور والمهدي[1]. ويلمع اسم أبي دلامة في بلاطهم جميعاً، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديماً، ومن أوائل من استظهروا في أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نخيلة، وهو من مخضرمي الدولتين: الأموية العباسية في مديح السفاح إذ يقول[2]:

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا ... وقام من تبر النبي الجوهر

أقبل بالناس الهوى المشهر ... وصاح في الليل نهار أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما صحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصور كثيرون في مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميري، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلاً، وقد روى له فيه قطعة

---

١ انظر ترجمته في الجزء السابع من الأغاني طبعة دار الكتب المصرية

٢ أغاني (طبعة السامي) ١٨/ ١٤٩ وما بعدها

من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعقد العهد لابنه محمد المهدي، وفيها يقول [1]:

ليس ولى عهدنا بالأسعد ... عيسى فزحلفها إلى محمد[2]

من عند عيسى معهداً عن معهد ... حتى تؤدى من يد إلى يد

فناد للبيعة جمعاً نحشد ... في يومنا الحاضر هذا أو غد

ويعد المهدي أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء، فقد مضى يجزل لهم في العطاء ومضوا يجزلون له في الثناء، وفيه يقول ابن الخياط، إن صح أنها له[3]:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبوة العتاهية والسيد الحميري ونصيب الأصغر والعماني الراجز، وقد روى له ابن المعتز أرجوزة يستحثه فيها على توليته العهد من بعده ابنيه الرشيد والهادي[4]، ومن مداحه الحسين بن مُطير مولى بني أسد، وكان يغلو في مديحه غلواً شديداً حتى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله[5]:

لو يعبد الناس يا مهدى أفضلهم ... ما كان في الناس إلا أنت معبود

أضحت يمينك من جود مصورة ... لا بل يمينك ومنها صور الجود

لو أن نوره مثقال خردلة ... في السود طُرّا إذن لابيضت السود

---

١ أغاني ١٨/ ١٥٠

٢ زحلف: دحرج ودفع

٣ أغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ٩٤

٤ طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار المعارف) ص١١١

٥ أغاني (طبع دار الكتب) ١٦/ ٢٣١

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين في الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون، وفى ذلك يقول ابن المولى [1]:

وإن أمير المؤمنين ورهطه ... لأهل المعالي من لؤى بن غالب

أولئك أوتاد البلاد ووارثو النـ ... ـبي بأمر الحق غير التكاذب

ومضى في القصيدة يذكر بلاء العباسيين في تقويض الحكم الأموي والأخذ للعلويين بثأرهم الذي كان مهدراً وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه.

وكان الهادي منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه[2]، وفى مقدمتهم مروان ابن أبي حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البهدلي. وخلفه سريعاً هرون الرشيد، وظل في الخلافة نحو اثنين وعشرين عاماً، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء[3]، ومن مدّاحه أبو الشيص والعماني وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بنت أبي حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السلمي والسيد الحميري ومنصور النمري وأبو الغول الطهوي، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون[4]:

بنيت لعبد الله بعد محمد ... ذرا قبة الإسلام فاخضر عودها

هما طنباها - بارك الله فيهما - ... وأنت - أمير المؤمنين - عمودها

ومن مدّاحه أيضاً ربيعة الرقى ونصيب الأصغر، ونراه يرد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النمري[1]:

---

١ أغاني ٣/ ٢٩٣

٢ أغاني ١٣/ ٣٢٦

٣ انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٤/ ٣٨٢

٤ ابن المعتز ص ١٤٩

٥ أغاني (طبعة الساسي) ٢٠/ ٢٥ وما بعدها.

إن المكارم والمعروف أودية　　أحلك الله منها حيث تتسع

إذا رفعت امرءاً فالله يرفعه　　ومن وضعت من الأقوام متضع

ويقال إنه كان لا يرى بأساً في أن يمدح بما تمدح به الأنبياء[2] !. وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم، فتغنى بها الشعراء طويلاً.

وولى بعده الأمين، وكان فيه لهو ومجون فلزمه أبو نواس، ومن مداحه أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمي، وكان يكثر في مديحه له من التنديد بأخيه المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله[3]:

خلافة الله قد توارثها　　آباؤه في سوالف الكتب

فهي له دونكم مورثة　　عن خاتم الأنبياء في الحقب

وقوله[4]:

من رأى الناس له الفصـ　　ـل عليهم حسدوه

مثل ما قد حسد القا　　ئم بالملك أخوه

وكان المأمون ممدحاً مثل أبيه الرشيد، ومن مداحه - وهو لا يزال ولى عهد - منصور النمري وأشجع السلمي وأبو محمد اليزيدي مؤدبه، وممن تغنوا بمديحه في خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدي عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التيمي ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب، ومدائحهم فيه مبثوثة في أخبارهم بكتاب الأغاني، ومر بنا في الفصل السالف تنويه أبي تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية، ومن مداحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومخلد بن بكار الموصلي وخالد الكاتب. وممن نوهوا بالواثق أبو تمام وله

---

١ أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ١٤٧

٢ أغاني ١٣/ ١٤٤

٣ أغاني (ساسي) ١٨/ ١٢٠

٤ النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/ ١٦١

فيه قصائد بديعة. ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء، هم أبو دلامة ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر.

أبو دلامة[1]

هو زند بن الجون، كوفي أسود، من موالى بني أسد، كان أبوه عبداً فاعتقه رجل منهم، وهو من مخضرمي الجولتين الأموية والعباسية، ولم يكن له في أيام الدولة الأولى شأن يذكر، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه يتألق إذ قربه منه السفاح، وكانت فيه دعابة جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذه هو ومن وليه من الخلفاء نديماً لهم يطرفهم بنوداره. ويقول أبو الفرج: "كان فاسد الدين رديء المذهب مرتكباً للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك، وكان يعلم هذا منه ويعرف به فيتجافى عنه للطف محله". ولعل أبا الفرج بني هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الخمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً. فأمره بلزوم الجماعة في مسجد قصره، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها:

ألم تعلما أن الخليفة لزّني ... بمسجده والقصر مالي وللقصر!

وما ضره والله يغفر ذنبه ... لو أن ذنوب العالمين على ظهري

وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه. وروى أبو الفرج في موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه في ليالي شهر رمضان، وأنه شق عليه ذلك فكتب إلى ريطة زوجة ابنه المهدي شعراً يضحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور. وفى خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره. وقد يكون فيه لهو وميل للمجون، أما أن يكون فاسد الدين مخلاً بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغة في الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعابة شأنه في دعاباته الأخرى التي رواها أبو الفرج وغيره.

---

١ انظر في ترجمة أبي دلامة وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة في الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/ ٢٣٥ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/ ٤٨٨ وشذرات الذهب ١/ ٢٤٩ ومرآة الجنان لليافعي ١/ ٣٤١ والمؤتلف ١٣١ ومعجم الأدباء ١١/ ١٦٥ وذيل زهر الآداب للحصري (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما بعدها. وقد طبع ديوانه بالجزائر

ويروى أنه انقطع في بعض أيامه إلى روح بن حاتم بن قبيصة المهلبي، أما في عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديماً لهم يضحكهم بنوادره، ويقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة، وكان أول ما جعله يُسني له الجوائز داليته التي مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراساني وفيها يقول:

أبا مجرم ما غير الله نعمة ... على عبده حتى يغيرها العبد

أفي دولة المهدي حاولت غدرة ... ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

وواضح أنه يلقب المنصور في البيت الأخير بالمهدى، مستعيراً ذلك من الشيعة وما يرددونه في آثارهم عن صفاته وأنه المنقذ الذي يخلص الناس من بلاياهم ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً ويهدى الناس إلى الطريق السوي المستقيم، وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقي للمهدي إنما هو محمد، ولعل المنصور لاحظ حين لقب ابنه محمداً بالمهدى، وكأنه كان يريد أن يوحي للناس بأنه المهدي المنتظر، على أن من الشعراء من مضى مثل أبي دلامة يلقبه هو نفسه بهذا اللقب، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين على شاكلة قوله:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا ... إلى السماء فأنتم سادة الناس

وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلاً، ولما توفى المنصور رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدي، والطريف أنه جمع المعنيين في كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى في قوله:

عينان: واحدة ترى مسرورة ... بإمامها جذلى وأخرى تذرف

تبكى وتضحك مرة ويسوءها ... ما أبصرت ويسرها ما تعرف

وله نوادر كثيرة ترويها كتب الأدب، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم، ومنها ما يتصل بزوجته وأولاده، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً، ويروى أنه بشر ببنت له، فقال تواً مداعباً ومتفكهاً:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لبّاتها وأب لئيم

وله بجانب ذلك أشعار في وصف الشراب والرياض، وانقطع بعد المنصور إلى المهدي فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة ١٦١ للهجرة.

مروان[1] بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان، ويقال أنه أبلى في الدفاع عنه حين حوصر في داره وقتل، فأعتقه مروان جزاء بلائه، ولما ولى المدينة لمعاوية ولاه على خراج اليمامة، واقترن هناك بعربية أنجب ومنها ابنه يحيى، وكان شاعراً متوسطاً، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوذة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكانت هو الآخر يقرض الشعر، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة. وقد نشأ في اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى في أعراقه فلم يلبث أن شدا به، غير ان اسمه لم يلمع إلا في العصر العباسي، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيباني، وكان جواداً مقداماً وبطلاً مغواراً، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان. ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية، وفيها يقول عنه وعن عشيرته:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في بطن خفان أشبل[2]

---

١ انظر في ترجمة مروان وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/ ٧١ والموشح المرزباني ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/ ١٠٦ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٤٢ وشذرات الذهب ١/ ٣٠١ وابن خلكان ٢/ ١١٧ والوزراء والكتاب للجهشياري، انظر الفهرس، وكذلك فهرس الأغاني ومرآة الجنان لليافعي ١/ ٣٨٩ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبي) ٢/ ٢٨٦

٢ خفان: مأسدة بالقرب من الكوفة ومطر اسم جد معن، وهو مطر بن شريك الشيباني.

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السّماكين منزل

بها ليل في الإسلام سادوا لم يكن كأولهم في الجاهلية أول

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالهم وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حجره من الأموال، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً إلى شرف بنو شيبان

إن عد أيام الفعال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

ومازال يوالي مديحه له حتى توفي سنة ١٥٢ للهجرة، فأبنه تأبيناً حاراً، ومن رائع تأبينه له لاميته، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه:

أقمنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد له زيالا

وقلنا: أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

ويقول من أخرى:

قل للمنية لا تُبقي على أحد إذ مات معن فما ميت بمفقود

ولما ولي المهدي بعد أبيه المنصور وفد عليه، ولم يكد يلقي بين يديه أولى قصائده فيه حتى بهره بمديحه، ولم يكن مديحاً عادياً بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التي يقدرها العرب دائماً، بل كان أيضاً مديحاً سياسياً، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين في الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق، ولعل شاعراً لم يبلغ في هذا الدفاع مبلغه، إذ كان يعرف كيف ينقض على العلويين بالحجة القاطعة على نحو منا نرى في قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم	جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من "الأنفال" آخر آية	بتراثهم فأردتم إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى: (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شئ عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين في وراثة الخلافة وأنهم مقدمون في هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على الأسباط في الوراثة، على نحو ما هو معروف في الشريعة الإسلامية. وبلغ من فرط إعجاب المهدي بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها، فقال مروان: مائة، فأمر له بمائة ألف درهم، وكانت أول مائة ألف درهم أخذها شاعر في أيام بني العباس. ومضى مروان يردد في مديحه للمهدى هذا الدفاع السياسي عن حق العباسيين في وراثة الخلافة، وهو يغدق عليه عطاياه الجزيلة، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التي يخاطب بها المهدي:

يا بن الذي ورث النبي محمداً	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبنى البنات وراثة الأعمام

ومازال يفد على المهدي حتى توفى وخلفه ابنه الهادي فوفد عليه مع من وفدوا يهنئونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال:

لقد أصبحت تختال في كل بلدة	بقبر أمير المؤمنين المقابر
ولو لم تسكن بابنه في مكانه	لما برحت تبكي عليه المنابر

ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له في الصلات السنية، ووفد على البرامكة – شأنه في ذلك شأن جميع شعراء الرشيد، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم – وله في يحيى بن خالد البرمكي من قصيدة:

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد	أخذنا بحيل اليسر وانقطع العسر

فإن نشكر النعمى التي عمنا بها	فحق علينا – ما بقينا – له الشكر

ومن رائع قوله في الفضل ابنه:

إذا أم طفل راعها جوع طفلها	غذته بذكر افضل فاستعصم الطفل
ليحيى لك الإسلام إنك عزه	وإنك من قوم صغيرهم كهل

وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور. وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعاً إلى اليمامة، ولذلك لم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية وما ترجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً، ويروى عنه أنه كان يحوك القصيدة في سنة، أما في الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها، وكان في الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها، أما في الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدها ممدوحيه، ومازال في المحل المرموق من الشعر حتى توفى سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولاً بيد شيعي انتقاماً منه للعلويين.

سلم[١] الخاسر

من موالي تيم عشيرة أبي بكر الصديق، ولد بالبصرة وبها نشأ، واختلف الرواة في سبب تلقيبه بالخاسر، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلف له مالاً كثيراً أنفقه على الشعر وفى اللهو فلقب بذلك، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طنبوراً، وقيل أيضا إنه إنما لُقب بذلك لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه دفتر شعر. ويقول أبو الفرج: " هو رواية بشار بن برد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر" وروى عنه أنه قال: "هل أنا إلا جزء من محاسن بشار، وهل أنطق إلا بفضل منطقه.. إني لأروي تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيري منها شيئاً" ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية ونراه في مطالع حياته يمدح معن بمن زائدة وعمر بن العلاء والي طبرستان وممدوح أستاذه بشرا، وله يقول:

كم كربة قد مسّني ضرها ... ناديتن فيها عمر بن العلاء

---

١ انظر في سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٩ والأغاني (طبعة الساسي) ٢١/ ٧٣ وتاريخ بغداد ٩/ ١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١١/ ٢٣٦ والوزراء والكتاب بالجهشياري انظر الفهرس.

ورثى معنا حين توفى رثاء حاراً، وبنفس اللوعة رثى أبا جعفر المنصور، وفيه يقول:

عجباً للذي نعى الناعيان　　كيف فاهت بموته الشفتان

ليت كفا حثت عليه تراباً　　لم تعد في يمنيها ببنان

وتفتح له أبواب الخلافة منذ عصر المهدي، إذ كان يعطيه هو ومروان بن أبي حفصة عطية واحدة. ويقول ابن المعتز إنه كان يذهب به في مديحه إلى أنه المهدي الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض ما نسب إليه من آثار، وله يقول في بعض قصائده:

وإلى أمير المؤمنـ　　ـين محمد خير الأنام

فضل الملوك محمد　　فضل الحلال على الحرام

ويقول:

ومهدى أمتنا والذي　　حماها وأدرك أوتارها

له شيمة عند بذل العطا　　ء لا يعرف الناس مقدارها

وكان يقف بجانبه في كل مناسبة، من ذلك أن نراه ينبري حين اتخذ يعقوب ابن داود وزيراً له قائلاً منوهاً به وبوزيره:

قل للإمام الذي جاءت خلافته　　تُهدى إليه بحث غير مردود

نعم المعين على التقوى أعنت به　　أخوك في الله يعقوب بن داود

ولما ماتت ابنته "البانوكة" حزن عليها هو وأمها الخيزران حزناً شديداً، وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادباً باكياً بمثل قوله:

أودى ببانوكة ريب الزمان　　مؤنسة المهدي والخيزران

بانوك يا بنت إمام المهدى　　أصبحت من زينة أهل الجنان

بكت لك الأرض وسكانها　　في كل أفق بين إنس وجان

ويقال إنه بلغ المهدي أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهم به، ولكنه استطاع أن يسل منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها في تصوير اعتذاره بمثل قوله:

وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

والحق أنه كان خالصاً للعباسيين، وقد مضى يمدح الهادي بعد المهدي مضيفاً عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله:

وجدناك في كتب الأولي ـن محيي النفوس وقتّالها

لقد جعل الله في راحتيك حياة النفوس وآجالها

وله يقول من أخرى:

لولا هداكم وفضل أولكم لم تدر ما أصل دينها العرب

ولم يكد الهادي يسمع منه هذا البيت حتى استخفه الطرب، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم. وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد في ابنه الأمين:

قد بايع الثقلان في مهدى الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم. ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوه به كما نوه بأخيه. وجذبه البرامكة إليهم، فأشاد بهم طويلاً، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التي مدح بها يحيى بن خالد وفيه يقول:

بلوت الناس من عجم وعرب فما أحد يسير كما تسير

فكل الأمر من قول وفعل إذا علقت يداك به صغير

وفى كفيك مدرجة المنايا ومن جدواهما الغيث المطير

وأكثر من مديح الفضل بن يحيى، حتى كاد ينقطع له، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه:

يه يومان: يوم ندى وبأس كأن الدهر بينهما أسير

وقوله:

أقام الندى والجود في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

وكان يمدح أيضاً الفضل بن الربيع وزير الرشيد. ويظهر أن الفضل البرمكي أكثر من برّه ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفى مقدمتهم صديقه أبو العتاهية، مم اجعل كلاً منهما يلمز صاحبه بعض اللّمز، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح في بيته الذي أنشدناه في الفصل السابق:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

وأما سلم فاتهمه بأنه كذاب منافق في زهده وتقشفه، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدى وفي ذلك يقول له سلم:

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد

لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يهاجي والبة بن الحباب، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء. ويظهر أنه كان يلم بشيء من اللهو والمجون في مطالع حياته، غير أنه لم تتقدم به السن حتى التزم جانب الوقار. وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه. ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب. وفى أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً في ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة. وأشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة، وله في الهادي مدحة اشتهرت في عصره وبعد عصره، إذ بني شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط:

موسى المطر عدل السير

وقد جعلها على قافية واحدة، وهى تفيض بالخفة والرشاقة، ومن حكمه البديعة:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد عن الخبر

ومازالت حياته تجري رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة.

٢

شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة، وربما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد في ذلك غضاضة هي فرقة الكيسانية من أصحاب أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم، كما أسلفنا عن الخلافة، ولعل ذلك ما جعل شعراءها، من أمثال السيد الحميري، يقفون في صفوف العباسيين مادحين مثنين. أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم العلويين في الحكم معهم، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم، وخاصة شعراء الزيدية. أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كي ينافقوا العباسيين، وكي يظهروا غير ما يبطنون، لمبدأ التقية المشهور الذي كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثنى عشرية وإسماعيلية، ومن ثم رأيناهم يمدحون خلفاء بني العباس، يسترون بذلك حقائقهم، على نحو ما هو معروف عن منصور النمري. وخير من يمثل شعراء الزيدية في أوائل هذا العصر سُديف وهرون بن سعد العجلي. أم سُديف فاشتهر بتحريضه السفاح لأول خلافته على الثأر من بني أمية بمثل قوله [١]:

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس

لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس[٢]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجده حنقاً، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة، حتى إذا قدموا وتهيؤا للطعام وقف سُديف ينشده[٣]:

لا يُغرّنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا

---

١ ابن المعتز ص ٣٩ والأغاني (طبع دار الكتب) ٤/ ٣٤٥

٢ الرقلة: النخلة الطويلة تفوت اليد.

٣ ابن المعتز ص ٤٠ والأغاني ٤/ ٣٤٨

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم، ويقال: بل شُدخوا بالأعمدة. وصنع صنيعه بجموعهم في الشام والحجاز والبصرة أعمامه: عبد الله وداود وسليمان. وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر في نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً. وما توافي سنة ١٤٥ للهجرة حتى يصور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية. وهى - كما أسلفنا في الفصل الأول - أول ثورة للزيدية، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية، ومن قوله في بعض تلك الأشعار، مخاطباً النفس الزكية[1]:

إنا لنأمل أن ترتد ألفتنا بعد التباعد والشحناء والإحن

وتنقضي دولة أحكام قادتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بني الحسن

وطبيعي أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة، إذ يقال إنه أمر بدفنه حياً. ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العجلي، وقد ولاّه إبراهيم ابن عبد الله في أثنائها واسطاً، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[2]، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية رداً عنيفاً، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو في تصور جعفر الصادق إمامهم، حتى ليجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولاً، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دون كل ما يحتاج إليه من هذا العلم في جلد يسمونه جفراً، يقول في تضاعيف قصيدته[3]:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر قال منكرا

فطائفة قالوا إله ومنهم طوائف سمته النبي المطهرا

---

١ مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبي) ص ٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١/ ٤٥

٢ انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها

٣ عيون الأخبار ٢/ ١٤٥

فإن كان يرضى ما يقولون جعفر فإني إلى ربى أفارق جعفراً

ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم برئت إلى الرحمن ممن تجفرا

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها، من مثل بشر بن المعتمر، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلي[1]. ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمداني، وله مراث في النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً[2]. وثار، كما مر بنا في الفصل الأول، لعهد الهادي الحسين بن على الحسني في مكة ونازله جيش عباسي في "فخ" فقتل هو وكثيرون من أهله وتركوا في العراء للسباع والعقبان، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آخر ندب وأشجاه[3]. ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان[4]، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها في تلك البلاد النائية. ومن أهم ثورات الزيدية ثورة[5] ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعي أن يكثر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين في هذه الثورات والتفجع عليهم، مما نقرؤه في كتاب مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصفهاني مفصلاً أوسع تفصيل.

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف في وجوه بني العباس، فقد جعلوا جميعا التقية مبدأ أساسياً في نحلهم المختلفة، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم في جمع الناس من حولهم بالكوفة، واجتمع حولهم فعلاً خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها. وقد تفرقوا شيعاً كثيرة، ومر بنا في الفصل السابق أن لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً، مقدماً عليها نحلة فرقته الشُّميطية الغالية، ونراه

---

١ الحيوان ٦/ ٢٨٤

٢ مقاتل الطالبيين ص ٣٠٤، ٣٨٤ وما بعدها

٣ نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها

٤ الملل والنحل للشهرستاني (طبع لندن) ص ١١٧

٥ انظر في هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ وما بعدها

يلوم زيد بن على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية، إذ سن لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام في وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم وسفك دمائهم، يقول في قصيدته[1]:

سن ظلم الإمام في القوم زيد إن ظلم الإمام ذو عقال[2]

والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس فضلاً عن الخلفاء بحقيقة نحلهم، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبنى العباس، مادحين لهم، بل أن منهم من سخر شعره للدفاع عن حقهم في الخلافة مبالغة في الستر والتقية على نحو ما سنرى عند نصور النمري. وربما كان الشاعر الإمامي الوحيد الذي جاهر بنحلته دعبلاً، إن صح أنه كان متشيعاً حقاً فضلاً عن إماميته. ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف، وقد مر بنا في الفصل السابق انه سخر كثيراً من شعره في رثاء الحيوان والطير، وقد عمل في خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد، ونرى الصولي يروى له في كتاب الوراق أشعاراً شيعية مختلفة في مديح بني هاشم وبيان فضائل على بن أبي طالب وفى رثاء الحسين وندبه ندباً حاراً، ملوحاً بيده في وجه أبي بكر وعمر وفى وجوه خصوم الإمامية، مشيراً إلى مهديهم الذي سيأخذ بثأرهم، يقول[3]:

إني لأرجو أن تنالهم منى يد تشفى جوى الصدر

بالقائم المهدي إن عاجلاً أو آجلاً إن مد في عمري

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بني العباس وخلفائهم، وهو غال في تشيعه وإماميته، ويروى الرواة، أنه تردد على مجالس تذكر فيها فضائل أبي بكر وعمر وعثمان، ولا يذكر فيها شئ من فضائل على، فتولى حنقاً، وهو يقول[4]:

---

١ مقاتل الطالبيين ص ٤١٩ والبيان والتبيين ٣/ ٣٥٧

٢ عقال: من العقل وهو مغرم الجناية

٣ كتاب الأوراق للصولي (أحبار الشعراء) ص ١٨٢

٤ أغاني (طبعة الساسي) ١٧/ ١٤٦

أغدو إلى عصبة صمت مسامعهم عن الهدى بين زنديق ومأفون

لا يذكرون علياً في مشاهدهم ولا بنيه بني البيض الميامين

لو يستطيعون من ذكرى أبا حسن وفضله قطّعوني بالسكاكين

ولست اترك تفضيلي له أبداً حتى الممات على رغم الملاعين

وكثر في هذا العصر بين شعراء الحديث عن على بن أبي طالب وفضائله، ومر بنا في الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صور فيها منزلته وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات. وينبغي أن نشير هنا إلى ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعليّ الرضا الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية، وأن أسرته ثارت عليه في بغداد، وأن علياً الرضا توفى سريعاً فانصرف عن فكرته، وقد ظل يوالي العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات في خلافته، إذ نراه – كما أسلفنا في غير هذا الموضع – يكتب إلى الآفاق في سنة ١١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبي طالب على جميع الصحابة، مما جعل شعراء الشيعة يطمئنون إليه، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبي تمام إلى النظم في فضائل على إرضاء للدولة. وأيضاً ينبغي أن نشير هنا إلى كثرة الانقسامات بين الشيعة وما جرّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه نم بعض المذاهب الشيعية وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي منشورات مختلفة من تلك الشعار. وجدير بنا أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة في العصر، وهم السيد الحميري ومنصور النمري ودعبل وديك الجن.

السيد[1] الحميري

١ انظر في ترجمة السيد الحميري وأشعاره وأخباره بن المعتز ص ٣٢ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٧/ ٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ والحيوان ٥/ ٣١٧ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستاني (طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٩، ٦٨، ٧٤ وفوات الوفيات في إسماعيل وفرق الشيعة للنوبختي (طبعة ريتر) ص ٢٦، ومعرفة أخبار الرجال للكشي ١٨٤ وترجمة جده يزيد بن مفرغ في الجزء الثاني من هذا الكتاب وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/ ٣٥٠

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الذي ترجمنا له في الجزء الثاني من هذه السلسلة، وقد تشككنا هناك في نسبه من حمير واستظهرنا أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عرف عنه من إتقانه للفارسية، على أننا نجد السيد يفتخر بحميريته، وكانت أمه من الأزد اليمنيين، ومن ثم يقول:

إني أمرؤ حميري غير مؤتشب جدّي رُعين وأخوالي ذوو يزن[1]

وقد ولد لأبويه في البصرة سنة ١٠٥ للهجرة، وكانا من إباضية الخوارج، فنشأ يسمع منهما سبّ علي بن أبي طالب، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة، وعبثاً كان يراجعهما. ولم يلبث أن أوغل في التشيع لعلي وآله، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنيفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة، فإذا هو يصبح كيسانياً لحماً وروحاً، ولا ندرى هل حدث له ذلك في البصرة أو حدث في الكوفة فقد أقام بها ردحاً من الزمن. وأياً كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بني أمية، حتى إذا أظله العصر العباسي تمشت في نفس الفرحة لانتصار الهاشميين وتقويض حكم الأمويين، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعي، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده، كما مر بنا، لمحمد بن علي العباسي، وأوصى محمد للسفاح ومن ثم كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة في نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذي كان يتبع فرقة أبي هاشم. وطبيعي لذلك أن نجد السيد الحميري الكيساني يهلل لانتصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب في الكوفة خطبته المشهورة التي أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلاً:

دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدها الدّارسا
قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابسا
ولست من أن تملكوها إلى مهبط عيسى فيكم آيسا

---

١ المؤتشب: غير الصريح في نسبه وذو رعين: منة ملوكم اليمن، وذو ويزن: أبناء ذي يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين.

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لامزاً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلماً وجوراً، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا، فهو لا يفكر في زوالها عنهم، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفنى الأرض ومن عليها، وتوفى السفاح وخلفه المنصور، فأغدق عليه من صلاته السنية وأغدق عليه السيد الحميري من مدحه بمثل قوله:

إن الإله الذي لا شئ يشبهه ... أعطاكم الملك للدنيا وللدين

أعطاكم الله ملكاً لا زوال له ... حتى يقاد إليكم صاحب الصين

وصاحب الهند مأخوذاً برمته ... وصاحب الترك محبوساً على هون

ومدح من بعده ابنه المهدي وظن طه حسين أن السيد الحميري كان في هذا المد منافقاً، فهو لا يستحل أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بني العباس بلسانه ويلعنهم في قلبه، فيظفر بهالهم ويتقى شرهم، كان يستحل ذلك كما كانت تستحله عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية[1]". ولا تقية ولا نفاق، وإنما شاعر كيساني يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بني أمية وسلطانهم الجائر، وهو بعد ذلك مخلص في كيسانيته إخلاصاً بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حي وأنه راجع يوماً يقول:

حتى متى؟ وإلى متى؟ ومتى المدى؟ ... يا بن الوصي وأنت حي ترزق

ويروى أن شيطان الطاق محمد بن على بن النعمان أحد متكلمي مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً في عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته، وغلبه في مناظرته، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثير سلفه الكيساني في العصر الأموي التي تجري على هذا النمط:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

على والثلاثة من بنيه ... هم أسباطه والأوصياء

فسبط سبط إيمان وحلم ... وسبط غيبته كربلاء

---

١ حديث الأربعاء ٢/ ٣٠٧

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

والسبط الأول الحسن والثاني الحسين المقتول بكربلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية، وكثير يقول إنه لا يزال حياً لم يذق الموت وأنه سيعود في جيش لجب وكان السيد الحميري في القرن الثاني لا يزال يؤمن مثله برجعته. وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق، وأجروا على لسانه:

تجعفرت باسم الله والله أكبر وأيقنت أن الله يعفو ويغفر

غير أن أبا الفرج رد ذلك قائلاً هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثاني تمجيداً لعلي وبنيه، فقد أنفق حياته في نظم أخبارهم ومناقبهم، ويقول ابن المعتز إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلي بن أبي طالب إلا نقلها غلى الشعر، وقد كرر طويلاً ما تدّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غدير خم بين مكة والمدينة، وفيه يقول:

أقسم بالله وآلائه والمرء عما قال مسئول

إن علي بن أبي طالب على التُّقى والبر مجبول

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التي تسمى المذهبة، وقد عنى بها الشيعة وشرحوها مراراً، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنه إلى البصرة مع طلحة والزبير، يقول:

أين التطرف بالولاء وبالهوى أإلى الكواذب من بروق الخُلّب

أإلى أمية أم إلى الشّيع التي جاءت على الجمل الخدب الشّوقب[1]

تهوى من البلد الحرام فنبهت بعد الهدو كلاب أهل الحوأب

وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوأب، وكان يفرط في سبها وسب طلحة بن الزبير وأبي بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يرعوى ولا يزدجر، وكان يستطيع أن

---

١ الخدب: البعير الضخم. الشوقب: الطويل

يسجل لعلي ما شاء من فضائله، دون أن يزج بنفسه في هذه المضايق الوعرة غير مراع لجلة الصحابة وأمهات المؤمنين أي حرمة، ولبئس ما قال في عائشة وصاحبيها:

جاءت مع الشقين في هودج تزجى إلى البصرة أجنادها

كأنها في فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

ويروى أن المهدي جلس يوماً يعطي قريشاً صلاتها وهو ولي عهد، فبدأ ببني هاشم ثم سائر قريش، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتي عمر وأبي بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته، ولباه المهدي. وقد روى أبو الفرج قطعة منها، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبّ والشتم.

ولعل في ذلك ما يدل على أن السيد الحميري كان غاليا في تشيعه غلواً قبيحا، ولو أنه لم يشب مديحه لعلي وبنيه بهذا السب المنكر لتداول شعره الرواة، إذ كان شاعراً بارعاً، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما روى من أن الحسن والحسين، أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره، فقال عمر: نعم المطيّ مطيكما:

أتى حسناً والحسين الرسول وقد برزا ضحوة يلعبان

فضمهما ثم فداهما وكانا لديه بذاك المكان

وراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطية والراكبان

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستنزف الدمع ويذيب القلب حسرات ويقال إنه استأذن يوماً على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حرمه خلف ستر، فدخل، فأنشده قوله:

امرر على جدث الحسـ ـين فقل لأعظمه الزكيه

آأعظما لا زلت من وطفاء ساكبة رويه[1]

وإذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيه

---

١ الوطفاء: السحابة المحملة بالأمطار الغزيرة.

وابك المطهر للمطهـ ـر والمطهرة النقيه

كبكاء مُعولة أتت يوماً لواحدها المنيه

فسالت دموع جعفر على خديه مدراراً وارتفع النشيج والصراخ في داره فأمره بالإمساك فأمسك.

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح في بعض ولاة البصرة والأهواز، وله أهاج في المرجئة وفى عبد الله بن سوار قاضي البصرة الذي رد شهادته لقذفه في الصحابة، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه. ويقال إنه كان يعكف على الخمر، وليس له فيها أشعار مذكورة. وفى الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده، وكان يعرف كيف يوازن بين جزالته وعذوبته، مع الرونق والحلاوة، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد، حتى يلذ الأسماع والأفئدة وحتى يسير على الشفاه والألسنة. ومازال هذا دأبه حتى توفى سنة ١٧٣ للهجرة.

منصور[1] النمري

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة[2] من قبيلة النمر بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابي المتكلم وروايته وعند أخذ ومن بحره استقى وتشبه كما يقول أبو الفرج، ويقال إنه وصفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ونوه به وقرظه، فاستقدمه من الجزيرة، فأنشده بعض مدائحه فيه، وحظى عنده، ولم يلبث أن وصله بالرشيد، ووقع من نفسه خير موقع، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبي حفصة بنفي الإمامة عن أبناء على بن أبي طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين، وأنهم لا يزالون يطوقون رقابهم بالمنن، وهم يجحدونها، فيثورون، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله، فإنه اكتفى بسجنه، ولم يقتله وفى ذلك يقول:

---

١ انظر في أخبار النمري وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وان قتيبة ٨٣٥ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣/ ٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢١٢ وأمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ٢/ ٢٧٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣/ ٦٨

٢ في بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان

بنى حسن وقل لبنى حسين | عليكم بالسداد من الأمور
أميطوا عنكم كذب الأماني | وأحلاماً يعدن عدات زور
مننت على ابن عبد الله يحيى | وكان من الحتوف على شفير
يد لك في رقاب بني على | ومن ليس بالمن الصغير
وإنك حين تبلغهم أذاة | - وإن ظلموا - لمحزون الضمير
فإن شكروا فقد أنعمت فيهم | وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بنو بنت فحق | وردوا ما يناسب للذكور
وما لبنى بنات من تراث | مع الأعمام في ورق الزبور

ويقال إنه استخف الرشيد حين أنشده هذه القصيدة، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء، فأخذ سبعاً وعشرين بدرة. ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه في مطلعها عن الشباب إذ يقول:

ما تنقضي حسرة منى ولا جزع | إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
بان الشباب وفاتتني بلذته | صروف دهر وأيام لها خدع
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته | حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
إن كنت لم تطعمي ثكل الشباب ولم | تشجى بغصته فالعذر لا يقع

ويقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له: أحسنت والله، لا يتهنأ أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب، وخرج إلى المديح ملوحاً في وجه العلويين بمثل قوله:

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا ابـ | ـن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
وما لآل على في إمارتكم | حق وما لهم في إرثكم طمع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا | قول النصيح فإن الحق يستمع

وهو يشير إلى أن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبي طالب بن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث في الإسلام. وكان لا يزال يحيط هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعاً، وحتى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته، يقول في القصيدة السالفة:

أي امرئ بات من هرون في سخط　　فليس بالصلوات الخمس ينتفع

ويقول في قصيدة ثانية:

يا خير ماض وخير باق　　بعد النبيين في الأنام

ومن قصيدة له ثالثة:

آل الرسول خيار النسا كلهم　　وخير آل رسول الله هرون

ولم يكن منصور في كل هذه الشعار مخلصاً، بل كان يظهر غير ما يضمر إذ كان شيعياً إمامياً، وكأنه يتخذ تلك الأشعار متجراً ن ليعيش آمناً، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية. وقد زعم المرتضى في أماليه أنه "كان ينافق الرشيد ويذكر هرون في شعره ويريه أنه من وجوه شيعته وباطنه ومراده بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لقول النبي، صلى الله عليه وآله، له: أنت مني بمنزلة هرون من موسى، ونراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين، ومن خير ما يصور ذلك لاميته وفيها يقول:

شاء من النسا رائع هامل　　يعللون النفوس بالباطل(١)

تقتل ذرية النبي وير　　جون جنان الخلود للقاتل

ويلك يا قاتل الحسين لقد　　بؤت بحمل ينوء بالحامل

ما الشك عندي في كفر قاتله　　لكنني قد أشك في الخاذل

---

١ هامل: المتروك ليلاً ونهاراً

وعاذلي أنني أحب بني | أحمد فالترب في فم العاذل
قد دنت ما دينكم عليه فما | وصلت من دينكم إلى طائل
دينكم جفوة النبي وما الـ | جافي لآل النبي كالواصل

وقد مضى في القصيدة ينكر موقف أبي بكر وعمر من دعوى فاطمة إرث "فدك" زاعماً أنهما ظلماها، ومطالباً بمن يثأر لها من ظلمتها، يقول:

مظلومة والنبي والدها | تدير أرجاء مقلة حافل
ألا مساعير يغضبون لها | بسلّة البيض والقنا الذابل[1]

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابي، فأسخط الرشيد عليه، غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له في مجالسه، وانتهز العتابي منه يوماً فرصة، فذكر له حقيقة النمري وأنه شيعي غال في تشيعه، وأنشده اللامية الآنفة وأشعاراً أخرى من مثل قوله:

آل الرسول ومن يحبهم | يتطامنون مخافة القتل
أمن النصارى واليهود وهم | من أمة التوحيد في أزل[2]

فاستشاط الرشيد غضباً، وبعث إلى الرقة، وكان مقيماً بها، من يقتله، غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله، فانكفأ راجعاً إلى الرشيد، فأعلمه خبره.

وممن مدحهم وأشاد بهم يزيد بن مزيد الشيباني، وكان من مُدّاح الفضل ابن يحيى البرمكي كما مر بنا، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفراً لسنة ١٨٧، وفي ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم. وواضح مما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعني عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه، وكان ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتي بالطرائف النادرة من مثل قوله:

---

١ مساعير: جمع مسعار، وهو موقد الحرب، البيض: السيوف. الذابل: الرقيق الحاد

٢ أزل: ضيق وشدة

ولقد تبيت أناملي يجنين رمان النحور

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه، وأنه كان يكتفي من ملاهي عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع.

دعبل[1]

هو دعبل بن على بن رزين، وقيل دعبل لقبه، واختلفوا في اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن، وهو من خزاعة صليبة لاولاءً[2]، ومن بيت شعر، فقد كان أبوه شاعراً متوسطاً، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين وولداه الحسين وعلى وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبي الشيص. وقد ولد دعبل بالكوفة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكراً إلى حلقات الدرس. على أننا نجده في شبابه يصحب الشطار ويشترك معهم في مغامراتهم، مما يؤكد أنه كان فيه نزعاً متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء في عصره، وأن يعم بهجائه الخلفاء وكل من قدموا له صنيعاً. ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة، فمضى يختلط بالشعراء، وانعقدت بينه وبني مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها عميق في شعره إذ عنى فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله:

مستعبرٌ يبكي على دمنةٍ ورأسه يضحك فيه المشيب

فمازال دعبل يدير البيت في نفسه، محاولاً أن يبني على معناه قطعة في الغزل حتى صنع قطعته التي فتحت له باب الشهرة على مصاريعه، إذ قال في بكاء الشباب ووقوعه في شباك الهوى:

---

١ انظر في دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص ٨٢٥ والأغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ٢٩ وتاريخ بغداد ٨/ ٣٨٢ والموشح ص ٢٩٩ وابن خلكان ١/ ١٧٨ ومعجم الأدباء ١١/ ٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكره ٥/ ٢٢٧ وشذرات الذهب ٢/ ١١١ ومعرفة أخبار الرجال للكشي ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشي ١١٦ ومرآة الجنان لليافعي ٢/ ١٤٥ ولسان الميزان ٢/ ٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣٢٢. وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجمك ببيروت وعبد الصاحب الدجيلي في النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر في دمشق.

٢ ممن زعموا أنه خزاعي ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته في الأغاني). وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٨

أين الشباب؟ وأيَّة سلكا؟ لا أين يُطلب؟ ضلَّ بل هلكا

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

يا ليت شعري كيف نومكما يا صاحبي إذا دمى سفكا

لا تأخذا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتركا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدي الرشيد، فطرب، وسأل عن ناظمها، فقيل له دعبل، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب، وسار دعبل إليه، وأنشده بعض شعر فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنياً، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان ووليها العباس بن جعفر الخزاعي (١٧٣ - ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سمنجان إحدى بلاد طبرستان. وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو القصف، منشداً مثل قوله:

إنما العيش خلال خمسة حبذا تلك خلالا حبذا

خدمة الضيف وكأس لذة وندیم وفتاة وغنا

وتؤثر له في الخمر بعض الأشعار، وله بجانبها غزليات قليلة، وهو يُعنى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقاً:

دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض

وليس في ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهل ووزرائه، وحقاً تروى له بعض أبيات في البرامكة حين نكبهم الرشيد، ولكنها لا تدخل في باب الرثاء إنما تدخل في باب العظة والاعتبار. وقد ظل لا يلم بالقصر في عصر الأمين، ونراه يخرج إلى الحج في سنة ١٩٨ للهجرة، ولا يعود إلى بغداد، بل يرتحل إلى مصر ووليها المطلب بن عبد الله الخزاعي (١٩٨ - ٢٠٠ هـ) وفيه يقول:

زمني بمطلب سقيت زماناً ما كنت إلا روضة وجنانا

كلُّ النَّدى إلا نداك تكلُّفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا

أصلحتني بالبِرِّ بل أفسدتني وتركتني أتسخَّط الإحسانا

ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البر والنوال، فقد ولاّه على أسوان، وسرعان ما شعر في هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة في الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها في الفصل الرابع.

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب، فإذا هو يهجوه هجاء مقذعاً كافراً يدع عنده، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر، فقال في بعض هجائه له:

تعلق مصر بك المخزيات وتبصق في وجهك الموصل

وأخذ يكثر من هجائه، مولياً وجهه نحو بغداد ن وتبعه المطلب معزولاً عن مصر، وتلطف له فكف لسانه عنه.

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكد يمثل بين أيديهما حتى انشد تائيته المشهورة.

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحيٍ مقفر العرصات

وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث في "كربلاء" و "فخ" نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض في حرمانهم من الاستمتاع بحقهم في الخلافة آملا في خروج مهديهم المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وفيها يقول:

ملامك في آل النبي فإنهم أحبَّاي ما عاشوا وأهل ثقاتي

فياربِّ زدني من يقيني بصيرةً وزد حبهم يارب في حسناتي

ألم تر أنى من ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات[1]

١ الفيء: الخراج وغنائم الحرب ن يريد أن العلويين سلبوا حقهم في سياسة الدولة والقيام على شئون المال. صفرات: خالية.

ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غد | تقطع قلبي إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خارج | يقوم على اتسم الله والبركات
يميِّز فينا كل حق وباطل | ويجزي على النعماء والنقمات

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا، أما الرضا فخلع عليه حلة من ثيابه، ويقال أن أهل مدينة "قم" الشيعية اشتروا منه الحلة بثلاثين ألف درهم، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا، كل درهم بعشرة. ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم. وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو في طريقه مع المأمون إلى بغداد، ودفن بها، بجانب قبر هرون الرشيد، ولم يكد النعي يبلغ دعبلا، حتى قال:

قبران في طوس خير الناس كلهم | وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكيِّ ولا | على الزَّكيِّ بقرب الرجس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول: فقد كان طهراً، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف في تاريخه، وقد انزل بالروم هزائم ساحقة، وليس ذلك فحسب، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنياً كما مر بنا، ولكن كأنما ينطوي دعبل على جحود غريب، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً. وله شعر شيعي كثير، وقد أكثر فهي من الحديث عن فضائل على بن أبي طالب، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه بمثل قوله:

رأس بن بنت محمد ووصية | يا للرجال على قناة يرفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع | لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّع

وهو يبدو في شعره الشيعي إمامياً وقد تشكك أبو العلاء في تشيعه، فقال إنه لم يكن صادقا فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به[1]، ولعله محق في تشككه، لأن مثل دعبل المنطوي على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا

١ رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص١٣٤

يعتقده، وكأن أموال "قم" هي التي دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء، ويقال إن المأمون إذا سمع هجاءه فيه أو في بعض وزرائه ضحك، وكان ذلك يدفعه إلى التمادي حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم:

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرَّفتك بمقعد

وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالي قبيلته خزاعة. على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التي كان ما ينى يرسها على جميع من حوله، وكان طاهر أعور، ويلقب بذي اليمينين، فقال:

وذي يمينين وعين واحدة نقصان عين ويمين زائده

وولى وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد، وكان الحسن بن سهل ولاَّه بريد جرجان، فجفاه ولم يلقه، وأثر ذلك في نفس دعبل، غير أنه لم يعمد إلى هجائه، خوفاً من لسانه، وقد مر بنا كان مسلم يقذع في هجائه وكيف كان يريشه سهاماً مصمية، وكأنما خشي دعبل معرة هجائه إن هو عرض له بالهجاء، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة:

أبا مخلد كنا عقيدي مودة هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا

غششت الهوى حتى تداعت أصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا

فلا تعذلني ليس لي فيك مطمع تخرقت حتى لم أجد لك مرقعاً

فهبك يميني استأكلت فقطعتها وجشَّمت قلبي صبرة فتشجَّعا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر في ولايته لخراسان (٢١٤ - ٢٣٠ هـ) فكان يصله في الشهر بمائة وخمسين ألف درهم، ومعه ذلك لم يسلم من لسانه، ولعله لم يتعرض لخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم، فقد صب عليه شواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة كرام إذا عدوا وثامنهم كلب

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفى، وخلفه ابنه الواثق، فأسرع يطلق لسانه فيه، جامعاً في هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله:

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

وروى الرواة له في المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً، وفيه يهجوه باستيلاء مواليه من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة في أيديهم، بل أصبح لهم عبداً، يقول:

ولست بقائلٍ قذعاً ولكن لأمر ما تعبَّدك العبيد

ولم يقف عند هجاء الأفراد، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم، وكانت قصيدة الكميت الشيعي في هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية. ولو أنه كان مخلصاً في تشيعه حقاً لأعلى صلة التشيع بينه وبين الكميت على الصبية القبلية، وخاصة أن الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد. وأثار ذلك أبو سعد المخزومي فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة. والحق أن الهجاء كان طبعاً ركب في نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كل من أسدى إليه صنيعة زوجته وأخاه رزينا وأهل مدينة "قم" بل الناس جميعاً، يقول:

ما أكثر الناس، لا، بل ما أقلهم والله يعلم أني لم أقل فندا

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

وممن هجاهم فأقذع في هجائه مالك بن طول التغلبي ممدوح أبي تمام، ويقال إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله في بعض قرى الأهواز. واختلف الرواة في سنة وفاته، فمنهم من جعلها في عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها إلى سنة ٢٤٦ للهجرة. وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفى لأوائل عهد المتوكل عقب هدمه لقبول الحسين والعلويين سنة ٢٣٥.

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعريته، فقد كان شديد العناية بصياغته وكان لا يزال يغوص على المعاني الدقيقة، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف البديع، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وهو أحد من برعوا لعصره في علم الشعر ونقده، مما جعله يؤلف في أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء في كتاباتهم.

ديك[1] الجن

هو عبد السلام بن رغبان، اشتهر بلقبه ديك الجن، وهو من سلالة شخص يسمى تميماً من أهل مؤتة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفهري صاحب معاوية. ويقول الجهشياري إن جد ديك الجن حبيب ابن عبد الله كان يتقلد ديوان العطاء لأبي جعفر المنصور. وولد ديك الجن لأبقيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة، ويقول أبو الفرج "إنه لم يبرح نواحي الشام ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً ولا متصدياً لأحد، وكان يتشيع تشيعاً حسناً، وله مرات كثيرة في الحسين بن على منها قصيدته:

يا عين لا للغضا ولا الكُثب بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرب

وهى مشهورة عند الخاص والعام ويُناح بها، وله عدة أشعار في هذا المعنى ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن علي الهاشمي وأخيه جعفر في سلمية (من أعمال حمص) وكان يمدحهما كثيراً ن وقد برح به الحزن حين توفي أحمد وأبنه في قصيدة طويلة معزياً بها أخاه جعفراً، وقيل بل معزياً له عن زوجته، وهى تصور غلوه في التشيع إذ١ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة، ومن ثم يخلع عليه بعض صفاتهم القدسية في رأى شيعتهم من مثل قوله:

نحن نعزيك ومنك الهدى مستخرج والنور مستقبل

نقول بالعقل وأنت الذي نأوي إليه وبه نعقل

وأنت علام غيوب النَّثا يوماً إذا نسأل أو نسأل[1]

---

١ انظر في ترجمة ديك الجن وأخبار وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/ ٥١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري بدار الثقافة ببيروت، وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحي والدرويش طبع حمص وما نقلاه في مقدمته عن كتاب الكشكول للعاملي وتزيين الأسواق للأنطاكي.

نحن فداء لك من أمة والأرض والآخر والأول

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون في أئمتهم. ولم يلبث جعفر أن توفى فبكاه بكاء حاراً. وكان يضم إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً في الدين، حتى ليبدو أحياناً شاكاً في البعث والنشور. ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة، كقوله في شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب:

إن كان عرفك مذخوراً لذي نسب فاضمم يديك فإني لست بالعربي[٢]

إني امرؤ بازل في ذروتي شرف لقيصر ولكسرى محتدي وأبى[٣]

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان في أشعاره، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تقوى، فكان لا يزال ينهاه، وهو لا يرعوي ولا يزدجر، ومن طريف نعته للخمر وساقيتها قوله:

تسقيك كأس مدامة من كفها وردية ومدامة من ثغرها

وقد ضاع أكثر شعره، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته "ورد" وكانت نصرانية من أهل بلدته، فشغف بها حباً، وأكثر فيها من غزله، وبادلته حباً بحب، وأسلمت واقترنت به، وعاشا مدة هانئين، وهو سادر في مجونه وغوايته. وكان ذلك – فيما يقال – يؤذي ابن عمه، فرأى أن يعكر صفو حياته، وسولت له نفسه أن يرصد له في إحدى أوباته من سلمية من يرمى عنده زوجته بالسوء، ولا ندرى كيف صدق ذلك، وقد مضى قالة السوء يزيدون في وهمه، حتى سارع يضربها بسيفه، فقضت نحبها، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها، ندب قلب مزقه الألم والندم، بمثل قوله:

رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتي من شفتيها

وقوله:

---

١ النثا: الخبر

٢ العرف: المعروف

٣ البازل: الكامل في التجربة، المحتد: الأصل.

كنت زين الأحياء إذ كنت فيهم ثم قد صرت زين أهل القبور

وقوله:

قمر أنا استخرجته من دجنه لبليتي وجلوته من خدره

عهدي به ميتاً كأحسن نائم والحزن يسفح عبرتي في نحره

وكان يتعلق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام، وجعلته مصدر شكه واتهامه، ثم توسعت في القصة، فجعلته يراهما فجأة في بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد، فقتلهما وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ في الشر بتناول هذا تارة وذاك تارة ثانية، مقبلاً لهما، ثم أخذ يصب الخمر وهو يصب دموعه منشداً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً.

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يعنى بشعره ويروى فيه، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين في أشعاره، وكأنه يريد أنت يقرنه بأبي تمام والبحتري ومن كانوا يعنون في شعرهم بالبديع. وليس من شك في أن أروع أشعاره ما نظمه في بكاء صاحبته، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد، ومازال يردد ذلك حتى توفي سنة ٢٣٥ للهجرة.

٣

شعراء البرامكة

مر بنا في الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذي في بلخ، وقد تألق اسم خالد بن برمك في قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التي قوَّضت حكم بني أمية. ونرى السفاح يتخذه وزيراً له ويقيمه على بعض الدواوين، كما نرى المنصور وابنه المهدي يقربانه منهما ويولِّيانه الولايات والأعمال الجليلة. ومازال عندهما في حظوة حتى توفي سنة ١٦٦ للهجرة. وعرف المنصور فضل ابنه يحيى، فولاه ولايات مختلفة في إيران وأذربيجان. ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدي، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل في ذي الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد في شهر المحرم التالي أرضعت كل منهما ابن صاحبتها، فكانا أخوين في الرضاع. ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدي أي سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدباً لابنه الرشيد، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله، فكان يلزمه ويدبر شئونه، حتى إذا توفى المهدي وخلفه الهادي وفكر في تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه، فعظمت منزلته عند صاحبه، وتطورت الأمور سريعاً، فتوفي الهادي وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له، وأطلق يده في جميع شئون الدولة وسلمه خاتم الخلافة، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقي، وقد أقام أبنه الفضل على المشرق كله من النهران إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصي إفريقية.

وكان يحيى عاقلاً حصيفاً يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة، فمضى كما مر بنا في غير هذا الموضع يصبغ نظم الدولة والسياسة والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يعنى بشئون الطب والترجمة، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية الفارسية، وبعث نهضة فكرية واسعة. وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وأبناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة، حتى لتروى في ذلك روايات تشبه الأقاصيص، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثاً

منهلَّة. جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم، وإذا هم يشركون الرشيد في جميع شعرائه، وقلما وجد شاعر لعصرهم في بغداد إلا ودبج فيهم بعض مدائحه، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد، وممن كان يختص بهم نصيب الأصغر، وله في يحيى كلمة طارت أبياتها في الآفاق من مثل قوله[1]:

عند الملوك مضرة ومنافع ... وأرى البرامك لا تضرُّ، وتنفع

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى، وله فيه قصيدة كانت فاكهة أهل الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر[2]:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فياطيب أخبار ويا حسن منظر

لهم رحلة في كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المستر

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فما خلقت إلا لجود أكفهم ... وأقدامهم إلا لأعواد منبر

إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه ... وناهيك من داع له ومدبر

وممن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيري النصراني، وفي يحيى يقول مصوراً برَّه وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده[3]:

رأيت يحيى أتم الله نعمته ... عليه يأتي الذي لم يأته أحد

ينسى الذي كان من معروفه أبداً ... إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد

وكان الأصمعي يألف جعفر بن يحيى ويخص به، وله فيه مدائح كثيرة وتقريظ وتفضيل، ومن طريف ما له فيه[1]:

---

١ أغاني (ساسي) ٢٠/ ٣٤ والجهشياري ص ٢٠٣

٢ ابن المعتز ص ١٢٥

٣ الجهشياري ص ١٧٩

إذا قيل: من للندى والعلا　　من الناس قبل الفتى جعفر

وما إن مدحت فتى قبله　　ولكن بنو برمك جوهر

وفيه تقول عنان جارية الناطفي[2]:

بديهته وفكرته سواء　　إذا التبست على الناس الأمور

وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة، فتكاثر الشعراء على بابه، وتكاثرت مدائحهم فيه، وصور ذلك بعض الشعراء فقال [3]:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى　　ترك الناس كلهم شعراء

علم المفحمين أن ينظموا الأشـ　　ـعار منا والباخلين السخاء

ومن أكثر من مديحه نصيب الأصغر وفيه يقول واصفاً جوده الغدق [4]:

جاد الربيع الذي كنا نؤمِّله　　فكلنا بربيع الفضل مرتبع

وفيه يقول سعيد بن وهب[5]:

مدح الفضل نفسه بالفعال　　فعلاً عن مديحنا بالمقال

ويقول إسحق الموصلي من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغناه بها، فطرب طرباً شديداً[6]:

لو كان بيني وبين الفضل معرفة　　فضل بن يحيى لأعداني على الزمن

هو الفتى الماجد الميمون طائره　　والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

---

١ الجهشياري ص ٢٠٦

٢ الجهشياري ص ٢٠٤

٣ الجهشياري ص ١٩٥

٤ أغاني (ساسي) ٢٠/ ٣١

٥ أغاني (ساسي) ٢١/ ٧١

٦ الجهشياري ص ١٩١

وكان أخوه جعفر يجفو أبا نواس فصبَّ عليه شواظا من هجائه، أما هو فأدناه منه وعظم نائله إليه، مما جعله يلهج بالثناء عليه، وفيه يقول [1]:

أوحده الله فما مثله ... لطالب ذاك ولا ناشد

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وممن كان ينقطع إليه أو النضير أحد الشعراء المغنين، وفيه وفي آله يقول[2]:

إذا كنت من بغداد منقطع الندى ... وجدت نسيمك الجود من آل برمك

ومازال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة في سنة ١٧٠ حتى أول صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحبس أبيه وأخيه، وظلا في الحبس إلى أن ماتا، أما يحيى فمات في سنة ١٩٠ ومات الفضل في سنة ١٩٢. وكان طبيعياً أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنية، ومن طرائف مراثيهم قول منصور النمري[3]:

أيدي بني يرمك لدينا ... تبكى عليهم بكل واد

كانت بهم برهة عروساً ... فأضحت الأرض في حداد

وكان الفضل بن عبد الصمد الرَّقاشي منقطعاً إليهم، وطالما نوهوا باسمه وأجزلوا في عطائه، فلما صلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجذع فوقف يبكي أحرَّ بكاء، ثم أنشأ يقول [4]:

أما والله لولا خوف واش ... وعينٌ للخليفة لا تنام

---

١ الحيوان للجاحظ ٣/ ٦٣

٢ أغاني (طبع دار الكتب) ١١/ ٢٨٦.

٣ مروج الذهب للمسعودي ٣/ ٤٩٦.

٤ أغاني (ساسي) ١٥/ ٣٤ وانظر له مرثية أخرى في غرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧

لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

وما أبصرت قبلك يا بن يحيى حساماً حتفه السيف الحسام

على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع في مراث كثيرة، ونحن نقف قليلاً عند شاعرين من أهم شعرائهما: أبان بن عبد الحميد اللاحقي وأشجع بن عمرو السُّلمي.

أبان[1] بن عبد الحميد[2] اللاحقي

من موالى البصرة، وبها منشئوه ومرباه، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء، وسرعان ما اصطدم بالمعذب بن غيلان، واستطار بينهما الشر، ونرى المعذب في هجائه يتهمه بأنه مانوي[3] زنديق، وهى تهمة ظلت عالقة به، مما يدل على أن لها أساساً في حياته، وسنرى الجاحظ لا ينفيها عنه، بل يثبتها متعجباً، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئاً من العكوف على اللهو والمجون شأن أخدانه من الشعراء. وممن هجاهم أيضاً في باكورة حياته بعض قضاة البصرة، ومن طريف ما يروى من هجائه أنه كان في جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له، ومن طريف ما يروى من هجائه أنه كان في جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له، فتزوج ثقفية يقال لها غمَّارة بنت الرحمن، كانت موفورة الثراء. فقال أبان يهجوها ويحذرها منه:

لما رأيت البز والشارة والفرش قد ضاقت به الحارة

واللوز والسكر يُرمى به من فوق ذي الدار وذي الداره

وأحضروا الملهين لم يتركوا طبلاً ولا صاحب زمَّاره

---

١ انظر في ترجمة أبان وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة ساسي) ٢٠/ ٧٣ والأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوي ص ١ – ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤/ ٤٤٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٧/ ٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٦٧

٢ في الفهرست لابن النديم: حميد. انظر ص ١٦٣

٣ الصولي ص ٧

قلت لماذا؟ قيل أعجوبة | محمد زوج عماره
لا عمر الله بها بيته | ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأت فيه؟. وماذا رجت | وهى من النسوان مختاره
أسود كالسفود ينسى لدى التـ | ـنور بل محراك قيَّاره
يُجري على أولاده خمسة | أرغفة كالريش طياره
وأهله – في الأرض من خوفه | إن أفرطوا في الأكل – سياره

وما كادت عمارة تسمعه هذا الهجاء حتى فرت على وجهها، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف. ولا يكاد يظل الناس عصر الرشيد والبرامكة الجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد، متجهاً تواً إلى الفضل[1] بن يحيى، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صور فيها نفسه مثالاً للنديم وأوصافه التي كانت تشترط لهذا العصر في الندماء، يقول:

أنا من بغية الأمير وكنز | من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب خطيب | ناصح راجح على النُّصَّاح
شاعر مفلق أخف من الريـ | ـشة مما تكون تحت الجناح
وظريف الحديث من كل فن | وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثاً | هو عند الملوك كالتفاح

ومضى في القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشئونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج. فوصله الفضل وخفَّ على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيهم. وقد نوه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوي بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء، وفى ذلك يقول أبان مخاطباً الرشيد:

---

١ في بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر

هنيئاً أمير المؤمنين لك الظفر فقد تمت النعمى وقد ساعد القدر

أتاك بيحيى الفضل سلماً يقوده مقراً ولولا يمن جدك ما أقره

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يستره ولا يظهره، ففي أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد، ذاكراً لهم أمنيته في أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبي حفصة، فقالوا له إنه أنم يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسي في الخلافة ورده على العلويين رداً عنيفاً، فاسلك طريقه إن شئت، فقال: لا أستحل ذلك. ثم حليت في عينه صلات الرشيد، فراجع نفسه ونظم فيه مدحة طويلة يقول في تضاعيفها:

نشدت بحق الله من كان مسلماً أعم بما قد قلته العجم والعرب

أعم رسول الله أقرب زلفة لديه أم ابن العم في رتبة النسب

وأيهما أولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجب؟

فإن كان عباس أحق بتلكم وكان على بعد ذاك على سبب

فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجب

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدي الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مدحه به. وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره في البرامكة، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التي يستحقها جزاء إحسانه. وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة من الشعراء فأمر له بدرهم ناقص، وفى رواية أنه أسقط قصيدته، فاغتاظ غيظاً شديداً، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلاً. ويقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدم إلى أبي نواس بنظم كليلة ودمنة فزيَّن له أبان أن يستعفي يحيى من النهوض بهذا العمل المضني، ثم حبس نفسه في بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر في أربعة أشهر بالغا بها أربعة[1] عشر ألف بيت. وحمل نقله إلى يحيى بن خالد، فأعطاه عليه مائة

---

١ في ابن المعتز: أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت.

ألف درهم، وفى رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف. فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً، وأخذ يقتص منه بهجاء مرير، ورد عليه أبان، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة، كان أبو نواس دائماً هو الذي يكثر فيها من السهام المسمومة.

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته، وروى له الجاحظ في حيوانه هجائية من هذا اللون، وهو يتهمه فيها بأنه مانوي وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد وغيرهم من المجان، ولا ينفي الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفي أن يوضع مع مطيع وأمثاله في كفة واحدة، يقول: "ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة". ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبي نواس: "كان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نواس، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شئ على شهرة شعره، ولم يقل في أبي نواس غير ثلاثة أبيات، وقد سارت في الدنيا، وهى هذه:

أبو نواس بن هاني ... وأمه جُلُّبان[1]

والناس أفطن شئ ... إلى حروف المعاني

إن زدت بيتاً على ذي ... ما عشت فاقطع لساني

وهى أبيات لاذعة. ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه، فاعتل علة طويلة، وأرجف أبان بموته، ثم صح من علته، وخرج فجلس على بابه، وإذا أبان ينشده أهجية، فلم يلبث أن أرعد منها واضطرب، ودخل منزله فما خرج منه حتى مات. وكان يحسن الرثاء، ومرثيته التي رواها الصولي في سوار بن عبد الله قاضى البصرة من أجود المراثي، وهى طويلة طولاً مسرفاً.

وأهم ما نهض به أبان في الشعر نظمه لكلية ودمنة، وقد نظم بجانبها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - أرجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى في التاريخ الفارسي وقصيدة في نشأة الخلق وعلم المنطق. وبذلك مكن لشيوع الشعر التعليمي في العربية، ونكتفي هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور في كليلة ودمنة، وهى تمضي على هذه الشاكلة:

---

١ الجبان: شجرة الورد، وهو اسم أم أبي نواس ن وكأن أبانا يتخذ من ذلك مغمزاً له

وإن من كان دنئ النفس	يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقي البائس	يفرح بالعظم العتيق اليابس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم	شئ إذا ما كان لا يعنيهم
كالأسد الذي يصيد الأرنبا	ثم يرى العير المجد هربا[1]
فيرسل الأرنب من أظفاره	ويتبع العير على أدباره

وتطرد أرجوزته في كليلة ودمنة وفى كمثير من الموضوعات التعليمية التي عنى بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذي اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومن تلاهم، حتى ليقول ابن المعتز في التعريف به: "كان شاعراً أديباً، عالماً ظريفاً، منطقياً، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه.. وهو الذي نقل كليلة ودمنة شعراً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة.. ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله، ولا أنت يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه". وترجم الصولي لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان. ونظن ظناً أنه ظل مشغولاً بعد البرامكة بشعره التعليمي، حتى توفي سنة ٢٠٠ للهجرة، فإنه لم يؤثر له شعر في مديح الأمين ولا في مديح المأمون وقواده ووزرائه.

أشجع[٢] بن عمرو السُّلمي

من بني الشريد السلميين، كان أبوه ينزل البصرة ن وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ن فشخص معها إلى موطنها وتزوجها، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته. مات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه، وكانت قد رزقت منه أيضًا ولديها أحمد وحريثاً. وأكمل أشجع نشأته ومرباه بالبصرة، وتفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته

---

١ العير: حمار الوحش

٢ انظر في أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٥٧ والأغاني (طبعة الساسي) ١٧/ ٣٠ والأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء)* ص ٧٤ وتاريخ بغداد ٧/ ٤٥ والموشح للمرزباني ص ٢٩٥ ومروج الذهب للمسعودي ٣/ ٢٩٦ والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢١٥ والمرزوقي على الحماسة ص ٨٥٦

وأخواتها من القبائل القيسية، وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر معدود، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله:

إذا افتخرت قيس بطيب العناصر　　على الناس طاطا رأسه كل فاخر

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) فمدح ابنه جعفراً ن ويقال إن الذي وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلمي، وله فيه وفي أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة، ولم يكد يبزغ عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زبيدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه، فأسنى جوائزه، ويقال: بل الذي وصله به جعفر بن يحيى البرمكي. وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان في الرقة حين انتقل إليها من بغداد سنة ١٨٠ لينفر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعي، ومن أجل ذلك استوطنها مدة. ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ، فقد روى صاحب الأغاني عنه أنه قال: "دخلت على محمد الأمين حين أجلس مجلس الدب للتعليم وهو ابن أربع سنين، وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم، فأنشدت:

ملك أبوه أمه من نبعه　　منها سراج الأمة الوهَّاج[1]

شربت بمكة في ربى بطحائها　　ماء النبوة ليس فيه مزاج[2]

فأمرت له أمه زبيدة بمائة ألف درهم، ويقال إنه لم يتول الخلافة أحد أبوه وأمه من بني هاشم إلا علي بن أبي طالب ومحمد الأمين". ومعروف أن الأمين ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا في سنة ١٧٤ وفي ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد. وسنراه يكثر من مدحه في حربه لنقفور، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه الأمين توثيقاً شديداً بقوله:

بيعة المأمون آخذة　　بعنان الحق في أفقه

---

١ النبعة: شجرة ضخمة تتخذ منها القسي والسهام، والاستعارة واضحة

٢ بطحاء مكة: واديها بين الربى والجبال وكانت تنزله في الجاهلية عشائرها الشريفة

لن يفك المرء ربقتها أو يفك الدين من عنقه

وله من وجه والده صورة تمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد، وعلقه في سقف الكعبة سنة ١٨٢ فانبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكده في قصيدة طرب لها الرشيد.

على أن صلته به إنما كانت في ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكي وأبيه وأخيه، حتى لكأنما اقتطعوه منه، ويقال إن أنس بن أبي شيخ كاتب جعفر هو الذي وصله به، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده:

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس

ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وكان جعفر حينئذ بمجلس في أحد قصورهم بحي الصالحية، فقال له صف موضعنا، فأنشد على البديهة:

قصور الصالحية كالعذارى لبسن ثيابهن ليوم عرس

مطلات على روض كسته أيادي الماء وشياً نسج غرس

إذا ما الطل أثر في ثراه تنفس نوره من غير نفس[1]

فتغبقه السماء بصبغ ورس وتصبحه بأكوس عين شمس[2]

وأعجب جعفر بحسن بديهته. وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه يحيى وأختاه الفضل، ويغدقون جميعاً عليه العطايا الجزيلة، ومن قوله في يحيى:

كفاني صروف الدهر يحيى بن خالد فأصبحت لا أرتاع للحدثان

---

١ الطل: الندى والمطر الخفيف

٢ تغبقه: من الغبوق وهو شرب الخمر في المساء، والورس: زهر أصفر. تصبحه: من الصبوح وهو شرب الخمر في الصباح

كفاني – كفاه الله كل ملمة – طلاب فلان مرة وفلان

فأصبحت في رغد من العيش واسع أقلب فيه ناظري ولساني

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية في الشام لسنة ١٨٠ وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين المتناحرتين. وأكثر من مديحه حينئذ، ويقال إنه كان يجرى عليه في كل يوم جمعة مائة دينار وأشجع يجري عليه أشعاره من مثل قوله:

أصلحت أمر الشام محتسباً ورتقت ما فيها من الفتق

ما كان يدرك بالقتال ولا بالمال ما أدركت بالرفق

وعزم الرشيد في نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر بذلك، فابتهج وابتهج معه شاعره، ولم يلبث أن دبج فيه إحدى روائعه وفيها يقول:

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفة أوسع

وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع

بديهته مثل تدبيره متى رمته فهو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع في أمره وعزيمته، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به، زاعماً أن الرشيد رأى حاجته إليه أمس من حاجة أهل خراسان. ويكثر من مديح جعفر ولا يلم به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفى يحيى يقول وقد أخذته علة:

إذا ما الموت أخطأه فلسنا نبالي الموت حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨٠ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله:

قد غاب يحيى فما أرى أحداً يأنس إلا بمذكرة الحسن

أوحشت الأرض حين فارقها　　من الأيادي العظام والمنن

لولا رجاء الإياب لانصدعت　　قلوبنا بعده من الحزن

ويروى صاحب الأغاني أن جعفراً ولاه عملاً، فرفع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه، فصرفه جعفر عنهم، فلما رجع إليه من عمله مثل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها:

لقد هزت سنان القول مني　　رجال وقيعة لم يعرفوني

أطافوا بي لديك وغبت عنهم　　ولو أدنيتني لتجنَّبوني

فوصله جعفر وخلع عليه. وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم:

كأنما أيامهم كلها　　كانت لأهل الأرض أعياداً

وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صبيح، ومن جيد قوله فيه:

له نظر لا يغمض الأمر دونه　　تكاد ستور الغيب عنه تمزق

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد. وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له: "هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء" وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حاراً، من مثل قوله:

برقت سماؤك في العدو وأمطرت　　هاماً لها ظل السيوف غمام[1]

وعلا عدوك يا بن عم محمد　　رصدان: ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا　　سلت عليه سيوفك الأحلام

---

١ الهام: الرؤوس

ولما بلغ هذا البيت في القصيدة اهتز الرشيد، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح في يوم عيد:

لازلت تنشر أعياداً وتطويها ... تمضى بها لك أيام وتمضيها

وليهنك الفتح والأيام مقبلة ... بالنصر والعز معقوداً نواصيها

أمست هرقلة تهوى من جوانبها ... وناصر الله والإسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجة إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم، قاسماً سنيه بين حج وغزو، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً في قصيدة استقبله بها في يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات، وفيها يقول:

ألف الحج والجهاد فماينـ ... ـفك من سفرتين في كل عام

سفر للجهاد نحو عدو ... والمطايا لسفرة الإحرام[1]

طلب الله فهو يسعى إليه ... بالمطايا وبالجياد السِّوام

فيداه يد بمكة تدعو ... ه وأخرى في دعوة الإسلام

وله مدائح مختلفة في الفضل بن الربيع. وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن في الصدور. على نحو ما يلقانا في رثائه لمحمد بن منصور بن زياد، وفيه يقول:

أنعى فتى الجود إلى الجود ... ما مثل من أنعى بموجود

أنعى فتى مصَّ الثرى بعده ... بقية الماء من العود

فالأرض يبست أشجارها بموته. ومن مراثيه الرائعة التي رواها أبو تمام في حماسته مرثيته فيمن يسمى ابن سعيد وفيها يقول:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ... ولا مغرب إلا له فيه مادح

---

١ جعل المطايا أي الإبل رمزاً للحج والجياد رمزاً للجهاد، والسوام: من سامت الريح: إذا مكرت واستمرت

وما كنت أدرى ما فواضل كفه على الناس حتى غيبته الصفائح[1]

فأصبح في لحد من الأرض ميتاً وكانت به حيا تضيق الصحاصح[2]

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض فحسبك منى ما تجن الجوانح[3]

وما أنا من رزء وإن جل جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

كأن لم يمت حي سواك ولم تقم على أحد إلا عليكم النوائح

لئن حسنت فيك المراثي وذكرها لقد حسنت من قبل فيك المدائح

وغزله رقيق وله خمريات قليلة. وواضح مما أنشدناه له أنه كان غزير المعاني رشيق الأسلوب وأن قصائده الجياد تعد من عيون الشعر في هذا العصر ودرره النفيسة، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين في سنة ١٩٨ إذ روى له الصولي قصيدة في مديح طاهر بن الحسين الذي حاصره إلى أن ظفر به وقتل صبراً، وفى ذلك يقول مخاطباً له:

سلبت رداء الملك ظالم نفسه وصنت الذي ولاك قصم الجبابر

وأكبر الظن أنه توفي بعد ذلك بقليل.

---

١ الصفائح: الحجارة العراض في سقف القبر

٢ الصحاصح: الأرض الواسعة المستوية

٣ تجن: تضمر. الجوانح:/ الضلوع

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد في هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية، ولن نستطيع أن نستقصي مدائحهم، ولذلك سنكتفي بأكثرهم تداولاً على ألسنة الشعراء، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك. وكان يعقوب بن داود وزير المهدي ومهجو بشار ممدحاً لكثير من الشعراء، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدي، وصوروا ذلك في أشعارهم من مثل قول أبي حنش النميري[١]:

يعقوب لا تبعد وجنبت الرَّدى ... فلنبكينَّ زمانك الرطب الثَّرى

وقول أبي الشيِّص مخاطباً المهدي[٢]:

أبلغ إمام الهدى أن لست مصطنعاً ... للنائبات كيعقوب بن داود

لو تبتغي مثله في الناس كله ... طلبت ما ليس في الدنيا بموجود

واستوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح، وكان غيثاً مدراراً، وممن كان ينقطع إليه أبو السد الحمَّاني التميمي وفيه يقول[٣]:

ولائمة لامتك - يا فيض - في الندى ... فقلت لها لن يقدح اللوم في البحر

أرادت لتنهى الفيض عن عادة الندى ... ومن ذا الذي يثنى السحاب عن القطر

مواقع جود الفيض في كل بلدة ... مواقع ماء المزن في البلد القفر

كأن وفود الفيض لما تحملوا ... إلى الفيض لاقوا عنده ليلة القدر

---

١ المرزوقي على الحماسة ص ٩٤٦

٢ الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٦٣

٣ الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/ ١٣٤

ومرت بنا مدائح الشعراء في البرامكة، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد في وزارتهم، ثم خلفهم على وزارته، ووزر من بعده للأمين، وقد مدحه ونوَّه به وكثيرون وفي مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية، وفيه يقول [1]:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً ... فمثل الفضل فاتخذ الخليلا

يرى الشكر القليل له عظيماً ... ويُعطي من مواهبه الجزيلا

أراني حيثما يممت طرفي ... وجدت على مكارمه دليلا

ولإسحق الموصلي أشعار فيه لحنها وغنى فيها، وممن يسلك في مداحه أبو نخيلة، وسلم الخاسر، وأشجعه السُّلمي، ومنصور النمري، وفيه يقول[2]:

هو الأوحد في الفضل ... فما يعرف ثانية

ونلتقي بعده بالفضل والحسن أبني سهل وزيري المأمون، وكانا جوادين ممدَّحين، وقد نوه مسلم بن الوليد بالفضل طويلاً، وفيه يقول مشيراً إلى تدبيره الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين[3]:

أقمت خلافة وأزلت أخرى ... جليل ما أقمت وما أزلتا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلاً، فكثرت أمداح الشعراء فيه، وفى مقدمتهم أبو تمام وأبو العميثل وأبو فرعون الساسي ومحمد بن عبد الملك الزيات ومحمد بن وهيب، وفيه يقول [4]:

به تُجتدى النعمى وتستدرك المنى ... وتستكمل الحسنى وتُرعى الأواصر

ولما رأى الله الخلافة قد وهت ... دعائمها والله بالأمر خابر

---

١ أغاني ٤/ ٦٧

٢ أغاني ١٣/ ١٥٠

٣ ديوان مسلم ص ٣٠٧

٤ أغاني (ساسي) ١٧/ ١٤٤

بنى بك أركاناً عليها محيطة فأنت لها دون الحوادث ساتر

ولعل وزيراً بعده لم يمدح كما مدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوَّه أبو تمام.

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد الممدَّحين وفى طليعتهم معن بن زائدة الشيباني والى اليمن للمنصور ثم سجستان، وهو ممدوح بن مروان بن أبي حفصة كما مر بنا في غير هذا الموضع، ومن مدَّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير، وله فيه حين توفى مرثية بديعة أنشدنا قطعة منها في غير هذا الموضع. وطبيعي أن يكثر في هذا العصر مديح ولاة البصرة والكوفة. ويتردد مديح الأولية في ديوان بشار حتى وفاته، كما يتردد الثانون في أشعار الكوفيين ترداداً أوسع من أن يُحصى ويستقصى. وكان في كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم، ويكفى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندي. وقد رحل إليها غير شاعر مقدماً مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بجودهم، ظافراً منهم بالصلات السنية، ومن ولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبي ممدوح بشار وربيعة الرَّقِّى، وقد قدم عليه في ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثير من مثل قوله:

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير

لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ويقال إنه أعطاه في هذه القصيدة عشرين ألف دينار[1]، غير ما أعطاه في قصائده الأخرى، وقد عرضنا في حديثنا عن أبي نواس لرحلته إلى الخصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من بره، كما عرضنا في حديثنا عن أبي تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضرمي، وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين، وصورنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاة دمشق والموصل وديار ربيعة

١ أغاني (دار الكتب) ٣/ ٢٨٩ وما بعدها

وأذربيجان والثغور، ومرت بنا أيضاً مدائح دعبل للمطلب الخزاعي حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه.

وليس من شك في أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاة تغنى بهما الشعراء، إذ جذبا إلى ولايتهما في خراسان غير شاعر، ومن مداح طاهر الرقاشي وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصيني، على نحو ما يصور لنا ذلك ابن المعتز، ويقول في ترجمة عوف بن محلِّم الخزاعي: "كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصه واختاره لمنادمته، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر.. ومما سار له في الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر في حرَّاقة[1] ينحدر إلى دار الخليفة، فقال رافعاً صوته:

عجبت لحرَّاقة ابن الحسـ ... أسن كيف تسير ولا تغرق

وبحران: من تحتها واحد ... وآخر من فوقها مطبق

وأعجب من ذاك عيدانها ... وقد مسها كيف لا تورق

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ وأعطاه مالها لعام: خراجها وضياعها، فوهبه كله وفرقه في الناس، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدمتهم مُعلَّى الطائي وله يقول[2]:

لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهباً ... لما أشرت إلى خزن بمثقال

تفك باليسر كف العسر من زمن ... إذا استطال على قوم بإقلال

وما بثثت رعيل الخيل في بلد ... إلا عصفن بأرزاق وآجال

وقد لزمه في ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبي العميثل وعوف بن محلم الخزاعي شاعري أبيه، وله يقول عوف من قصيدة طويلة[3]:

---

١ الحراقة: ضرب من السفن

٢ أغاني (دار الكتب) ١٢/ ١٠٢

٣ ابن المعتز ص ١٨٨

يا بن الذي دان له المشرقان وألبس الأمن به المغربان

وهو ممدوح علي بن جبلة وأبي تمام والعتابي، وله يقول[1]:

ودك يكفينيك في حاجتي ورؤيتي كافية عن سؤال

وكيف أخشى ما عشت لي وإنما كفّاك لي بيت مال

على نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوهوا بهم طويلاً مدحوا القواد أمداحاً رائعة، ومدائح بشار وأبي العتاهية في عمر بن العلاء الذي قضى على المحمرة بجرجان لعهد المهدي مشهورة. ولعل قائداً لم يمدح في عصر الرشيد كما مدح يزيد بن مزيد الشيباني ممدوح مسلم بن الوليد، وفيه يقول منصور النمري[2]:

لا تقربن يزيداً عند صولته لكن إذا ما احتبى للجود فاقترب

ومن مداحه علي بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمي. ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتصم أبو دلف العجلي، يقول أبو الفرج في ترجمته له: "محله في الشجاعة وعلو المحل عند الخلفاء وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه[3] " وكانت غيوث كرمه لا تنزل تنهل على الشعراء، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحه، وممن كان ينقطع إليه علي بن جبلة وأبو الأسد الحمّاني التميمي وبكر بن النطاح، وفيه يقول مصوراً شجاعته[4]:

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ يوم اللقاء ولا يراه جليلا

لا تعجبوا لو أن طول قناته ميل إذن نظم الفوارس ميلا

---

١ أغاني ١٣/ ١١٧

٢ أغاني ١٣/ ١٥٥

٣ أغاني ٨/ ٢٤٨

٤ أغاني (طبعة الساسي) ١٧/ ١٥٥

وله يقول [1]:

فكفك قوس والندى وتر لها وسهمك فيه اليسر فارم به عسري

ويقول أيضاً فيه:

ولقد طلبنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسب

وهو من مداح أبي تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما. وقد جلى في حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون في مقدمتهم الأفشين وخالد ابن يزيد بن مزيد وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ولأبي تمام فيهم أمداح رائعة صورنا أطرافاً منها في ترجمته. ونحن نقف قليلاً عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم: أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمي وعلى ابن جبلة والخُريمي.

أبو الشيِّص[2]

غلب عليه لقبه أبو الشيص واسمه محمد بن عبد الله بن رزين وهو ابن عم دعبل، ويقول أبو الفرج "كان متوسط المحل في شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع أبو نواس، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعي أمير الرقة بمدحه بأكثر شعره، فقلما يروى له في غيره، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه". ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه:

إن الأمان من الزمان وريبه يا عقب شطا بحرك الفياض

بحر يلوذ المعتقون بنيله فعم الجداول مترع الأحواض[3]

ثبت المقام إذا التوى بعدوه لم يخش من زلل ولا إدحاض[4]

---

١ ابن المعتز ص ٢١٩

٢ انظر في أبي الشيص وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/ ٤٠٠ ونكت الهميان للصفدي ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٥/ ٤٠١ وفوات الوفيات ٢/ ٢٢٥

٣ فعم: مملوء

٤ إدحاض: انزلاق

غيث توشحت الرياض عهاده ليث يطوف بغابة وغياض[1]

ومشمر للموت ذيل قميصه قاني القناة إلى الردى خواض

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة، ولما مات أكثر من رثائه ومدح الأمين ولـه في ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله:

جرت جوار بالسعد والنحس فنحن في وحشة وفى أنس

العين تبكى والسن ضاحكة فنحن في مأتم وفى عرس

يضحكنا القائم الأمين وتبـ ـكينا وفاة الإمام بالأمس

بدران: بدر أضحى ببغداد في الـ ـخلد وبدر بطوس في الرمس[2]

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلاً وفاته بطوس في المشرق:

غربت في المشرق الشمـ ـس فقل للعين تدمع

ما رأينا قط شمسا غربت من حيث تطلع

ومن رائع مراثيه قوله يبكى بعض الأبطال وقد سقط صريعاً في ميدان القتال مـصوراً بأسـه وشجاعته:

ختلته المنون بعد اختيال بين صفين من قنا ونصال

في رداء من الصفيح صقيل وقميص من الحديد مُذال[3]

وهو أحد من برعوا في الغزل ووصـف الخمـر، ولـه فـيهما أشـعار كثـيرة طـارت في الـدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله في الغزل:

مهاة ترتمي الألبا ب عن قوس من السحر

---

١ العهاد: أول مطر الربيع. غياض: جمع غيضة وهى الشجر الملتف.

٢ الخلد: قصر بناه المنصور ببغداد. الرمس: القبر.

٣ مذال: طويل الذيل

لها طرف يشوب الخـ ـمر للندمان بالخمر

عفيف اللحظ والإغضا ء في الصحو وفى السكر

وقوله في الخمر:

وعذراء لم تفترعها السقاة ولا استامها الشرب في بيت حاني[1]

ولم تزل الشمس مشغولة بصنعتها في بطون الدِّنان

ترشحها لأثام الرجال إلى أن تصدى لها الساقيان

عجوز غذا المسك أصداغها مضمخة الجلد بالزعفران

يطوف علينا بها أحور يداه من الكأس مخضوبتان

وله في المشيب وبكاء الشباب كثير من الشعار الرائعة التي يطرف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة، وتارة بالمعاني التي تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله:

أبدى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قرونه ببياض[2]

وقوله:

خلع الصبا عن منكبيه مشيب وطوى الذوائب رأسه المخضوب

نشر البلى في عارضيه عقاراً بيضاً لهن على القرون دبيب

وقوله يذكر الشباب:

فهل لك يا عيش من رجعة بأيامك المونقات الحسان

وهيهات يا عيش من رجعة بأغصانك المائلات الدواني

لقد صدع الشيب ما بيننا وبينك صدع الرداء اليماني

---

١ استامها: ساوم على شرائها

٢ الندوب: الكلوم والجروح

وعمى بأخرة من حياته، فحزن حزناً عميقاً، ومضى يرثي عينيه ويبكيهما بأبيات مؤثرة، تصور التياعه التياعاً شديداً من مثل قوله:

يا نفس بكى بأدمع هتن ... وواكف كالجمان في سنن[1]

على دليلي وقائدي ويدي ... ونور وجهي وسائس البدن

أبكى عليها بها مخافة أن ... تقرنني والظلام في قرن

ولعل في ذلك كله ما يصور براعته في الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً إلى كثير من دقائق المعاني ورائع الصور والأخيلة. ويقال إن بعض الغلمان قتله وهو ثمل بالخمر سنة ١٩٦ للهجرة.

عبد الله [٢] بن أيوب التيمي

كان يكنى أبا محمد وهو من موالي بني تيم ومن أهل الكوفة، وقد تركها إلى بغداد طلباً لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكي وبنيه مائة ألف درهم، وقد جلى في حادثة مشهورة، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التي افترضها صاغرًا. ورجع الرشيد إلى الرقة، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يغزى نقص الصلح المعقود، وحار وزراء الرشيد كيف يخبرونه، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء، وسرعان ما دبج التيمي قصيدة حماسية رائعة ضمنها الخبر، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً:

نقض الذي أعطاكه نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير

---

١ هتن: غزيرة. واكف: سائل لا ينقطع

٢ انظر في عبد الله بن أيوب وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ١١٥ وانظر ١٧/ ٣١ و ٤٥ والحيوان ٦/ ٥٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٨٩

نقفور ! إنك حين تغدر أن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور

أظننت حين غدرت أنك مفلت هبلتك أمك ما ظننت غرور

أبقاك حينك في زواخر بحره فطمت عليك من الإمام بحور[1]

واهتز الرشيد طرباً بشعره ونشر عليه الدر. وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقلة، فافتتحها عنوة، وذل نقفور وذلت روما.

ويقول صاحب الأغاني إن التيمي اتصل بيزيد بنم مزيد، فلم يزل منقطعاً إليه حتى مات، وليس بين أيدينا ما يصور مدائحه له، وقد بكى فيه بطولته وزياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكاً ذريعاً حين اختطفه الموت، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مراثي العصر:

أحق أنه أودى يزيد تبين أيها الناعي المشيد[2]

أتدرى من نعيت وكيف فاهت به شفتاك؟! كان بك الصعيد[3]

أحامي المجد والإسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميد[4]

تأمل هل ترى الإسلام مالت دعائمه وهل شاب الوليد

وهل شيمت سيوف بني نزار وهل وضعت عن الخيل اللبود[5]

وهل تسقى البلاد عشار مزن بدرتها وهل يخضر عود[6]

أبعد يزيد تختزن البواكي دموعاً أو تصان لها خدود

---

١ الحين: الموت والهلاك

٢ أودى: مات

٣ الصعيد هنا: القبر

٤ تميد: تتحرك وتهتز

٥ شيمت السيوف: أغمدت

٦ المزن: السحب. والعشار: جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد، يريد المزن المحملة بالأمطار، الدرة: أصلها كثرة اللبن ويريد المطر الغزير

ومن عجب قصدن له المنايا على غمد وهن له جنود

لقد عرى ربيعة أن يوماً عليها مثل يومك لا يعود

ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية في قائده يبكي بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه.

ونرى التيمي بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجج معه في نقضه لعهد أخيه المأمون، وله في ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم. ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه في الأمين بمثل قوله:

نصر المأمون عبد اللَّـ ـه لما ظلموه

نقضوا العهد الذي كا نوا قديماً أكدوه

لم يعامله أخوه بالذي أوصى أبوه

وعفا عنه المأمون ووصله، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل، وفيه يقول [1]:

لعمرك ما الأشراف في كل بلدة وإن عظموا إلا لفضل صنائع

ترى عظماء النسا للفضل خشعاً إذا ما دنا والفضل لله خاشع

وهو يعد في الخلعاء المجان، غير أن أشعاره في الخمر متوسطة، ويظهر أنه كف عنها بأخرة من حياته، وحسنت سيرته، وحسن إيمانه، يشهد لذلك مثل قوله:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين

وارغب إلى الله مما في خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون

---

١ قارنت الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٣٢٠ بالأغاني ١٨/ ١٩٩ حيث ذكر أبو الفرج أن البيتين في مديح الفضل بن الربيع.

وواضح أنه كان شديد أسر الشعر، وأنه كان يعرف كيف يصطفى اللفظ، سواء أراد أسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق. وقد توفي سنة ٢٠٩ للهجرة.

علي[١] بن جبلة

اشتهر بلقبه العكوك، ومعناه القصير السمين، وهو من أبناء شيعة العباسيين الخراسانيين، ولد سنة ١٦٠ للهجرة بحي الحربية في بغداد، وكان ضريراً، وفى بعض الروايات أنه ولد أكمه لا يبصر، وفى روايات أخرى أنه فقد بصره في صباه. وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه، وسرعان ما استبانت فيه موهبته الشعرية، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به. ولم تطمح نفسه إلى مديح الخلفاء، وإن كان يقال إنه مدح المأمون، ولكمن على كل حال ليس بين أيدينا شئ من هذا المديح. ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله:

أعطيتني يا ولى الحق مبتدئاً ... عطية كافأت مدحي ولم ترني

ماشمت برقك حتى نلت ريقه ... كأنما كنت بالجدوى تبادرني[٢]

وأهم ممدوحيه حميد بن عبد الحميد الطوسي وأبو دلف العجلي، وله في أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه في كل منهما مائة ألف فدرهم، وقد أنشده أولاهما في يوم عيد والثانية في يوم نيروز، وفيها يقول:

حُمَيْدُ يا قاسم الدنيا بنائله ... وسيفه بين أهل النكث والدين

أنت الزمان الذي يجري تصرفه ... على الأنام بتشديد وتليين

لو لم تكن كانت الأيام قد فنيت ... بالمكرمات ومات المجد مُذحين

صوَّرك الله من مجد ومن كرم ... وصور الناس من ماء ومن طين

---

١ انظر في على بن جبلة وأخباره وأشعاره ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١، ٤٣٣ والأغاني (طبع الساسي) ١٨/ ١٠٠ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ١١/ ٣٥٩ ونكت الهميان للصفدي ص ٢٠٩ ومرآة الجنان لليافعي ٢/ ٥٣ وشذرات الذهب ٢١/ ٣٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان

٢ شام البرق: نظر إليه أين يتجه. والريق: أول الغيث. الجدول: العطاء

وله فيه مدائح كثيرة، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبي غانم كناية عن بطولاته وانتصاراته المدوية في الحروب:

دجلة تسقي وأبو غانم ... يطعم من تَسقي من الناس

والناس جسم وإمام الهدى ... رأس وأنت العين في الرأس

وقوله:

إنما الدنيا حميد ... وأياديه الجسام

فإذا ولى حميد ... فعلى الدنيا السلام

وعثر القدر بمحمد بن حميد في حروبه مع بابك، فخر صريعاً في ساحة البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامي وجداً شديداً، ورثاه أبو تمام بمراث رائعة عرضنا لها في حديثنا عنه، ولعلي بن جبلة مرثية بديعة فيه ويقال بل هي في أبيه حميد، ويقول أبو الفرج إن البحتري وأبا تمام سلخا في مراثيهما أكثر معانيها وفيها يقول:

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع ... وما صاحب الأيام إلا مفجع

أصبنا بيوم في حميد لو أنه ... أصاب عروش الدهر ظلت تضعضع

وكنت أراه كالرزايا رزئتها ... ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع

نعاء حميداً للسرايا إذ غدت ... تُذاد بأطراف الرماح وتوزع [1]

كأن حميداً لم يقد جيش عسكر ... إلى عسكر أشياعه لا تروع

ولم يبعث الخيل المغيرة بالضحى ... مراحا ولم يرجع بها وهى ظلع [2]

رواجع يحملن النهاب ولم تكن ... كتائبه إلا على النهب ترجع

---

١ نعاء: اسم فعل أمر من نعى. توزع: تكف

٢ ظلع: من الظلع وهو العرج

هوى جبل الدنيا المنيع وغيثها الـ مريع وحاميها الكميُّ المشيع[1]

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكد يبقى فيه شيئاً لغيره، إلا ما كان من حميد الطوسي، ومدائحه فيه أبدع وأروع، وقد طار منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه:

ملك تندى أنامله كانبلاج النوء عن مطره[2]

مستهل عن مواهبه كابتسام الروض عن زهره

إنما الدنيا أبو دلف بين مغزاه ومحتضرة[3]

فإذا ولى أبو دلف ولَّت الدنيا على أثره

وقوله وقد أسرف في المبالغة:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال غلى حال

وما مددت مدي طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر في أبي دلف وشعره الآخر في ابن حميد، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة، وحمل إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه ثم قتله. وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف باتساع أفقه وسماحة نفسه وكرم سجاياه، وقالا إنه مات حتف أنفه. وقال بعض من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفى أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر في ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه في الرجوع، فسأله أن يقيم واتصل بره به، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله، فدخل إليه وأنشده من قصيدة مستأذناً في القفول إلى موطنه:

ملك عزمه الزما ن وأفعاله الدول

---

١ المريع: الخصيب. الكمي: الشجاع

٢ النوء: نجوم تظهر قبل المطر

٣

ليته حين جاد لي بالغنى جاد بالقفل

وأذن له مغدقاً عليه من نواله. وعبد اتلله بن طاهر إنما أقام في خراسان منذ سنة ٢١٤. وفى ذلك دليل على أن وفاة على بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه، مع الألفاظ الرشيقة العذبة، ومن طريف معانيه قوله:

يأسو الذي يجرح أعداؤه وما لما يجرحه آس

وقوله:

كأنهم والرماح شابكة أسد عليها أظلت الأجم

وقوله في مديح أبي دلف:

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور براعته في صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة مونقة، ودفعه مزاجه الفارسي الحاد إلى الإكثار من المبالغة في نعت ممدوحيه، حتى ليفرط في ذلك إفراطاً شديداً.

الخُريميّ[1]

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهي الخريمي، من صُغد الترك من مرو، وهو جزري نزل بغداد، وكان له ولاء في غطفان جعله يلزم عثمان بن خريم المُرِّي الغطفاني في ولايته على أرمينية، وظل وفياً له، فنسب إليه، وفيه يقول:

جزى الله عثمان الخريمي خير ما جزى صاحباً جزل المواهب مفضلاً

كفى جفوة الإخوان طول حياته وأورث مما كان أعطي وخولا[1]

---

١ انظر في الخريمي وأخباره وأشعاره البن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٦/ ٣٢٦ وزهر الآداب ٤/ ٢٠١ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشياري والبيان والتبيين والحيوان والجاحظ وكذلك الطبري ٦/ ٤٥٨ و ٧/ ٢٥ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص ٧٠٣ ومعجم البلدان ٥/ ٣٦٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢

وفى أخباره ما يدل على انه كان يكثر من الاختلاف في بغداد إلى مجالس الأدب، ويظهر أيضاً أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ في بيانه من النقل عنه. وقد تـألق نجمـه في عصر الرشيد والبرامكة، وفيه يقول ابن المعتز: "كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيعطى الكثير"، ومن شعره في يحيى البرمكي:

يا راعى السلطان غير مفرط ... في لين مختبط وطيب شمام[٢]

حتى تنخنخ ضارباً بجرانه ... ورسمت مراسيه بدار سلام[٣]

وأكثر مدائحه في صاحبه عثمان المري وفى محمد بن منصور بن زياد كاتـب البرامكـة الملقـب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش، وفيه يقول:

زاد معروفك عندي عظماً ... أنه عندك مستور حقير

تتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور خطير

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البحباح البلخي كاتب الفضل بـن يحيـى البرمكي، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد سنة ١٩٣ يعبر فيهـا عـن شـدة شوقه إليه، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة وصداقة، وفيها يقول:

إلى صاحب لا يخلق النأيُ عهده ... لناء ولا يشقى به من يصاقبه[٤]

هو الشهد سلماً والذُّعاف عداوة ... وبحر على الوراد تجرى غواربه[٥]

فيا حسن الحسن الذي عم فضله ... وتمت أياديه وجمت مناقبه[٦]

إليك على بعد المزار وصعبه ... نوازع شوق ما ترد عوازبه[١]

---

١ خول: أنعم

٢ مختبط: من اختبطه إذا سأله بدون قرابة أو معرفة. شمام: دنو وقرب

٣ تنخنخ: من تنخنخ البعير إذ براك وجم على الأرض. الجران: عنقه. وضرب بجرانه: استقر واستقام

٤ يخلق: يبلى. يصاقبه: يجاوره

٥ غوارية: أعالى موجه

٦ جمت: كثرت

فهل يرجعن عيشي وعيشك مرة ببغداد دهر منصف لا نعاتبه

عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمت صدع الإناء مشاعبه

وممن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده، وكان أبو دلف شاعرا بليغاً محكم القول، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له في بعض مديحه بقوله:

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كركب وقوف

وهو تصوير دقيق. ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التي دبجاه في ممدوحيه أحسن من مراثيهم فيهم وأجود، وسأله في ذلك، فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد! ومن بديع رثائه قوله:

وأعددته ذخراً لكل مصيبة وسهم المنايا بالذخائر مولع

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وله في بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق في فتنة الأمين، فأحرق كثيراً من قصورها، وهدم بعض أحيائها، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة وثلاثين بيتاً، بكاها فيها، وندبها ندباً حاراً، موازناً ماضيها وحاضرها ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحياؤها من هذا الدمار الذي صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها، وفيها يقول:

يا بوس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها

رق بها الدين واستخف بذي الـ ـفضل وعز النساك فاجرها

وصار رب الجيران فاسقهم وابتز أمر الدروب شاطرها

وهو في القصيدة ينتصر للمأمون. ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبي دلف العجلي. ويظهر أنه لم يشبه بما كان يبتغيه منه، فتحول يهجوه بمثل قوله:

---

١ عوازبه: جمع عازب وهو البعيد

إني وجدت أخي أبا دُلف عند الفعال مولد الشرف

وممن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين، وكان يتقعر في كلامه، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب، وله يقول:

لا تشادق إذا تكلمت واعلم أن للناس كلهم أشداقا

وحدث في أثناء رفقته لعثمان بن خريم في ولايته على أرمينية أن عقد له في بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه، فكرهوا ذلك، ومازالوا به، حتى عزله، وأثاره هذا الحادث، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغد، وفيها يقول:

أبالصغد بأس إذ تعيرني جمل سفاهاً ومن أخلاق جارتي الجهل

فإن تفخري يا جمل أو تتجملي فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل

أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى لقبر على قبر علاء ولا فضل[1]

وما ضرني أن لم تلدني يُحابر ولم تشتمل جرم على ولا عكل[2]

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين في أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه، وهو لا يستمد فيه من شعوبية، إنما يستمد من نظرية الإسلام التي تسوى بين الناس عرباً وموالي، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. وفى أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعياً إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح:

تزود من الدنيا متاعاً لغيرها فقد شمرت حذاء وانصرم الحبل[3]

وهل أنت إلا هامة اليوم أو غد لكل أناس من طوارقها الثُّكل

---

١ شرعاً: متساوين لا فضل لأحدهم على الآخر

٢ يحابر وجرم وعكل: قبائل عربية

٣ حذاء: سريعة الأدبار

وفى الأغاني بترجمة حماد الرواية خبر يدل على معاشرته للمجان، ولعله مكذوب، لتأخر عصره عن عصر حماد، وقد رويت له أشعار قليلة في الغزل، وقيل إن أول ما نظمه قوله:

بقلبي سقام لست أحسن وصفه ... على أنه ما كان فهو شديد

تمر به الأيام تسحب ذيلها ... فتبلى به الأيام وهو جديد

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالعور وتارة بالأعمى، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنَّ، وله أشعار كثيرة، يبكي فيها عينه وبصره، أنشدنا منها قطعة في الفصل الرابع، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله:

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً ... فإن البعض من بعض قريب

يمنِّيني الطبيب شفاء عيني ... وهل غير الإله لها طبيب

وقوله:

كفى حزناً أن لا أزور أحبتي ... من القرب إلا بالتكلف والجهد

وأني إذا حييت ناجيت قائدي ... ليَعدِلني قبل الإجابة في الرد

وفى أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق في المعاني، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه في ذلك ملاحظة نافذة وقدرة على النظرية الكلية في الأشياء، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله:

الناس أخلاقهم شتى وإن جبلوا ... على تشابه أرواح وأجساد

للخير والشر أهل وكلوا بهما ... كل له من دواعي نفسه هاد

وقوله:

ودون الندى في كل قلب ثنية ... لها مصعد حزن ومنحدر سهل

وود الفتى في كل نيل ينيله ... إذا ما انقضى لو أن نائله جزل

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعاً، إذ يجعله في بشر المضيف وحسن استقباله لا في طعامه وكثرة ذبائحه، يقول:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ومما يجرى هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر في الآفاق:

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائماً معانيه وأشعاره، فلا تجد فيه عوجاً ولا انحرافاً، بل تجد دائماً المتانة والسهولة، ويروى أنه سئل: ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته؟ قال: لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه. وقد توفي سنة ٢١٤ للهجرة.

٥

شعراء الهجاء

مر بنا في غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حدته في هـذا العصر، حتى كاد يتلاشى، إلا بقايا قليلة تمثلت في نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد، كما تمثلت في نقائض دعبل وأبي سعد المخزومي، ومرجع ذلك إلى تطـور واسـع في الحيـاة، جعـل الفخـر الجنسي يحل محل الفخر القبلي، مما دفع إلى ظهور الشعوبية، وحقاً بقيت أسراب من هـذا الفخـر عند القبائل ومواليها، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفي في مثل قوله مفتخـراً بقبيلتـه بكر[1]:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكان أبو نواس – كما مر بنا – يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حاداً، ولكن الدولة كانـت له ولبكر وأمثالها بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائـه لهـذه العـصبية، وطلـب بكراً وهرب منه. وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العـصبيات وبالتـالي خبـت نـار النقـائض التـي كانت مشتعلة في عصر بني أمية. وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه، بل لقد تعالـت نيرانـه واضطرمت اضطراماً، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قـصر في عطائهم، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبل. وهو جانب أوسع مـن أن يستقصي لكثرة ما قيل فيه من أشـعار، ولـذلك سـنكتفي هنـا بالحـديث عـن تهـاجي الـشعراء بعضهم مع بعض، وقد ذكرنا قبلا تهاجي حماد عجرد وبشار.

وكانت في حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بـن إيـاس، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان. ولعل شاعراً لم يهج في هذا العـصر كـما هجـى

---

١ ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغاني

أبان بن عبد الحميد، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبي نواس، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعـذَّل بن غيلان، وفيه يقول [1]:

صحَّفت أمك إذ سمـَّـ ـتك بالمهد أبانا

قد علمنا ما أرادت لم ترد إلا أتانا

صيَّرت باء مكان التـ ـاء والله عيانا

قطع الله وشيكا من مسمِّيك اللِّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه، وسلقوه بألسنه حداد، وقى مقـدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وكان كثيراً ما يهجوه بأنه ليس عربياً وأنه دعى في ولائـه لبنـي سعد العشيرة القحطانيين، مما جعله يرد عليه بمثل قوله [2]:

وجدنا الفضل أبعد من رقاش من الأتن أدَّعت فيها الفيول

وجدنا الفضل اكرم من رقاش لأن الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنا مولى من لا مـولى لـه". وقـد مـر بنـا تهاجي أبي العتاهية ووالبة، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسماً حتى فر منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره. واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك في ترجمتنا لأولهما، وكان سلم يرميه بأنه كاذب في زهده ويرميه أبو العتاهية بشح نفسه وما يجـره ذلك عليه من الذل. وممن اصطدم به مروان بن أبي حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنـيَّ وله يقول [3]:

غدا اللوم يبغي مطرحاً لرحاله فنقَّب في بر البلاد وفى البحر

فلما أتى مروان خيم عنده وقال رضينا بالمقام إلى الحشر

---

١ أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ٢٢٧

٢ ديوان أبي نواس. وأغاني (ساسي) ١٥/ ٣٤

٣ أغاني ١٠/ ٩٢ وما بعدها

وليست لمروان على العرس غيرة ولكن مروانا يغار على القدر

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه، وربما كان أهم شاعر حسده أبا تمام، حتى كان لا يكتفي بهجائه، بل يدعي عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول[1]:

أدعبل إن تطاولت الليالي عليك فإن شعري سم ساعه

وما وفد المشيب عليك إلا بأخلاق الدناءة والوضاعه

ووجهك إن رضيت به نديماً فأنت نسيج وحدك في الرَّقاعه

ولو بدلته وجهاً بوجه لما صليت يوماً في جماعة

وكانت صلات أبي تمام في كل بيئة ينزل بها سبباً في كثرة من هجوه، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه في حديثنا عنه. ونحن نخص بالحديث هجاءين كبيرين هما أبو عيينة المهلبي وعبد الصمد بن المعذَّل.

أبو عيينة [2] المهلبي

هو أبو عيينة بن محمد بن أبي عيينة، من سلالة المهلب بن أبي صفرة، مولده ومنشؤه وحياته في البصرة، إذ لم يفارقها إلا لماماً، وكان أبوه يولَّى الري لأبى جعفر المنصور، ثم قبض عليه وحبسه وغرمه. وكان لأبى عيينة أخوان شاعران هما عبد الله وداود، ومن الغريب انهم جميعاً كانوا هجائين، أما عبد الله فقصد ابن طاهر ومدحه، ثم هجاه مراً، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن على والى البصرة، وقد تولاها من أبنائه غير واحد، وفيهم يقول:

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب في الدار

لا يقبس الجار منهم فضل نارهم ولا تكف يد عن حرمة الجار

---

١ أغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ٣٤

٢ انظر في أشعار أبي عيينة وأخباره ابن المعتز ص ٢٨٨ وابن قتيبة ص ٨٤٧ وما بعدها والأغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ١١ وما بعدها.

وأبو عيينة أشعر الثلاثة، ويقول ابـن المعتـز إنـه "أحـد المطبـوعين الـذين لم يـر في الجاهليـة والإسلام أطبع منهم، وهم بشار وأبو العتاهية والسيد الحميري وأبو عيينة".

وقد استغل موهبته في فنين هما الهجاء والغزل، وأكثر هجائه في ابن عمه خالد ابن يزيـد بـن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه في جنده حين توجه إلى جرجان والياً عليهـا للمهـدي وكان خالد قد أوسع له في الأماني وأنه سيغدق عليه ويوليه بعض الولايات، ولما نزل جرجـان جفاه وتنكر له، فبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيتـه. وعبثـاً حـاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن الجندية، فشكاه إلى الهادي وكان قد ولى الخلافة بعد أبيه ن فأمر له بصلة وأقفله وخصبه، ومن قوله فيه:

لقد خزيت قحطان طُرًّا بخالد ... فهل لك فيه – يخزك الله – يا مضر

دنئ به عن كل خير بلادة ... لكل قبيح عن ذارعيه قد حسر

له منظر يُعمي العيون سماجة ... وإن يختبر يوماً فيا سوء مختبر

أبوك لنا غيث نعيش بوبله ... وأنت جراد ليس يبقى ولا يذر

له أثر في المكرمات يسرنا ... وأنت تعفي دائماً ذلك الأثر

تسيىء وتمضي في الإساءة دائباً ... فلا أنت تستحيي ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول، فقال: بل الخزي موفَّر على قحطـان وقـد عـرف كيـف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذي عم به عشيرته وأخلاقه الـسيئة وغباوتـه، بـل أيـضاً بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً في البيت الواحد بين المديح والهجـاء. وهـو يكثـر في هجائـه مـن الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة، مع الإقذاع ومع الغمز واللمز، ومن طريف ماله فيه قوله:

خالد لولا أبوه ... كان والكلب سواء

لو كما ينقص يزدا ... د إذن نال السماء

وقوله:

وإذا تطاولت الرءو س فغط رأسك ثم طاطه

ويروى أنه[1] قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحه فلم يجد عنده ما قدَّره فيه، فولَّى عنه مغاضباً وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبي، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحاً رائعاً هاجياً في تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله:

داود محمود وأنت مُذمَّمٌ عجباً لذاك وأنتما من عود

ولرب عود قد يُشَقُّ، لمسجد نصف، وسائره لحش يهود

فالحش أنت له وذاك لمسجد كم بين موضع مسلح وسجود

داود يفتح كل باب مغلق بندى يديه وأنت قفل حديد

وكأنما كان موكلاً بهجاء أبناء أعمامه، وأيضاً ببناتهم، فقد روى صاحب الأغاني أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها، فكتب أبو عيينة إليه، يعنفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها، يقول:

رأيت أثاثها فطمعت فيه وكم نصبت لغيرك من أثاث

فصير أمرها بيدي أبيها وسرح من حبالك بالثلاث[2]

وإلا فالسلام عليك منى سأبدأ من غد لك بالمراثي

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبي قد شغفته حباً، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن علي العباسي، فكاد يجن جنونه ويطير صوابه، وظل يدور حولها وينظم فيها

---

١ نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى أخيه أبن عيينة مما يدل على أنه صاحب الخبر.

٢ سرح: طلق

شعاره، غير أنه كان يخشى زوجها وآله، فعمد إلى التكنية عنها لمولاة لها تسمى دنيا، وفى ذلك يقول:

وكتمت اسمها حذاراً من النا ... س ومن شرهم وفى الناس شر

ويقولون بُح لنا باسم دنيا ... واسم دنيا سر على النسا ذخر

وهو يكثر في أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها، وزياراته، التي كانت متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وداً بود وحباً بحب، وكيف كانا يجتمعان في قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة، وكيف كانا يلعبان ويعيشان منذ صغرهما، يقول:

وملعبنا في النهر والماء زاخر ... قرينين كالغصنين فرعين في أصل

ومن حولنا الريحان غضا وفوقنا ... ظلال من الكرم المعرَّش والنخل

إذا شئت مالت بي إليها كأنني ... إلى غصن بان بين دعصين من رمل[1]

فيا طيب طعم العيش إذ هي جارة ... وإذ نفسها نفسي وغذ أهلها أهلي

وإذ هي لا تعتل عني برقبة ... ولا خوف عين من وشاة ولا بعل

فقد عفت الآثار بيني وبينها ... وقد أوحشت مني إلى دارها سُبلي

وكانت سيدة فاضلة، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله، بينما هو يصطلي بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد، ملوحاً لها بأنه سيموت في سبيلها وأن أحداً لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم، يقول:

ولأنت إن مت المصابة بي ... فتجنبي قتلي بلا وتر

فلئن هلكت لتلطمن جزعاً ... خديك قائمة على قبري

وعلى هذا النحو ظل حبها قوياً حاراً في قلبه، وظلت ترده عنها في عنف تارة وفي رفق تارة ثانية، وهو يذكرها عهودهما القديمة وكيف أنه يفي لها وفاء شديداً، بينما هي تدافعه وتقاومه

---

١ الدعص: كثيب الرمل

قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه، وهو كل يوم يزداد بها كلفاً وغراماً وحباً ما فوقه حب، وفى ذلك يقول:

أرى عهدها كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

وعهدي لها كالآس حسناً وبهجة له نضرة تبقى إذا ما انقضى الورد

وما وجد العذري إذ طال وجده بعفراء حتى سل مهجته الوجد

كوجدي غداة البين عند التفاتها وقد شف عنها دون أترابها البرد

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد

وفى أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسلوى عنها، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به ولها، وعاد يدور حول بيتها لا يستطيع كظم حبه، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له بكثير من التضرع والاستعطاف، وصاحبته لا تُعنى به ولا تكترث، وهو يزداد بها شغفاً وهياماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله:

ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ في حفظه عجب وفى تضييعك

ونأيت عنه فماله من حيلة إلا الوقوف إلى أوان رجوعك

متخشعاً يذرى عليك دموعه أسفاً ويعجب من جمود دموعك

إن تفتنيه وتذهبي بفؤاده فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك

وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وقد جرته غيرته من زوجها إلى لمزه ببعض هجائه، وكانت له نظرتا وتأملات دقيقة في الحياة جعلت الحكمة تجري أحياناً على لسانه، ومن رائع ما يروى له في تصوير القدر والحظوظ:

مالا يكون فلا يكون بحيلة أبداً وما هو كائن فيكون

سيكون ما هو كائن في وقته وأخو الجهالة متعب محزون

يسعى القوى فلا ينال بسعيه حظا ويحظى عاجز ومهين

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسي، ويقول ابن المعتز إن "شعره أنقى من الراحة، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط". وقول أبو الفرج: "كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً.. وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويقل التكلف". وفى حديث ابن المعتز عنه ما يدل على أنه لحق خلافه المأمون ويظهر أنها لم تظله طويلاً.

عبد الصمد[1] بن المعذّل

من قبيلة عبد القيس، ومولده ومنشؤه بالبصرة، وهو من بيت شعر، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً، ويروى أن محمد بن سليمان العباسي كان يستخدمه في ولايته البصرة على بعض أعشارها، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه، فقال حمد عجرد يهجوه بهذين البيتين اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع:

ظهر الأمير عليك يا غيلان ... إذ خنته إن الأمير معان

أمع الدمامة قد جمعت خيانة ... قبح الدميم الفاجر الخوان

وكان ابنه المعذل شاعراً مجيداً، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به، ومن طريف ما ينسب إليه من شعر قوله:

وإني لصبار على ما ينوبني ... وحسبك أن الله أثنى على الصبر

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضاً، يقول أبو الفرج: "كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم في المعتزلة". وفى أشعار عبد الصمد ما يدل على انه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول:

لن تلبسوا منطقي بمشكلة ... إلا عن الأصمعي أو خلف[2]

---

١ أنظر في عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ٢٢٦ وما بعدها و ١٤/ ٣٦١ وما بعدها وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وفوات الوفيات والأوراق للصولي (قسم أخبار الشعراء) ص ٣٩، ٥٣، ١٣٦ والوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١.

٢ لبس الأمر: خلطه

يريد خلفاً الأحمر. وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهو ومجون وتعابث، وكان هجاء خبيث اللسان حتى ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة، فإذا هو يتناول به أخاه، وكان له جاه واسع في بلدته وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد فيه فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير، ورجع إلى البصرة، فاستقبله جلتها استقبالاً حافلاً، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله:

ولما أن أتته دُريهمات — من السلطات باع بهن ربه

كسبت أبا الفضول لنا معاباً — وعاراً قد شملت به وسبه

وفكر أحمد في أن يجاور في الثغور ويجاهد في جيش إسحق بن إبراهيم المصعبي صاحب بغداد وحاكمها ولم يكد يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به، فأمر له بخمسمائة دينار. وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة، فتلقاه عبد الصمد بقوله:

يرى الغزاة بأن الله همته — وإنما كان يغزو كيس إسحاق

فباع زهداً ثواباً لا نفادله — وابتاع عاجل رفد القوم بالباقي[1]

وكان لا يخف على نفسه أحد أبناء أخيه، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب، فتولاه كما تولى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله:

يا أبغض الناس في عسر وميسرة — وأقذر الناس في دنيا وفي دين

لو شاء ربى لأضحى واهباً لأخي — بمُرِّ ثكلك أجراً غير ممنون

إن القلوب لتطوى منك يا بن أخي — إذا رأتك على مثل السكاكين

وطبيعي وهذا شأنه في أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة، على نحو ما نجد في أهاجي حمدان بن أبان له، إذ قذف أمه الزرقاء طويلاً، وكان كثيراً ما يأتي هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورع، من مثل قوله في أبي رهم:

---

١ الرفد: العطاء

لو جاد بالمال أبو رهم كجوده بالأخت والأم

أضحى وما يعرف مثل له وقيل أسخى العرب والعجم

واشتبك مع الجمّاز ابن أخت سلم الخاسر، وكان لا يقل عنه خبثاً في هجائه ولا شراً، وكان مما صبه الجمّاز على رأسه قوله:

ابن المعذَّل من هو ومن أبوه المعذَّل

سألت وهبان عنه فقال: بيض محوَّل[1]

وكان وهبان رجلاً يبيع الحمام، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يغشى المجالس ويحلف أنه ما قال: عبد الصمد بيض محول ويسألهم أن يعتذروا إليه، فلم يبق خاص ولا عام إلا رواهما، وردَّ عليه بعد الصمد قائلاً:

نسب الجمّاز مقصو ر إليه منتهاه

ليس يدرى من أبو الجمـ ـاز إلا من يراه

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة، لأن فهمه يحتاج إلى شئ من الفطنة. ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبي الشاعر تباعد، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشؤم، فكال له الصاع صاعين، ونراه يتعرض لأبي تمام حين اجتمع به في مجلس مزرياً على تكسبه بشعره قائلاً له:

أنت بين اثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مُذال[2]

لست تنفك طالباً لوصال من حبيب أو طالباً لنوال

أي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

وفكر أبو تمام في إفحامه، ثم أنشد:

أفيَّ تنظم قول الزور والفند وأنت أنزر من لا شئ في العدد[1]

---

١ محول: حضنه غير أبويه

٢ مذال: مهان

أشرجت قلبك من بُغضي على حرق كأنها حركات الروح في الجسد[2]

وكان لا يزال يصب سياط هجائه على جيرانه ومن يختلط بهم من القيام اللائي يعرضن عنه وأصحابهم من المقينين، وله مرثية كلها هجو في أحد الطفيليين وقد صور فيها نهمه وموته من هذا النهم، استهلها بقوله:

أحزان نفسي عليه غير منصرمه وأدمعي من جفوني الدهر منسجمه

وله أشعار مختلفة في الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهري وكان شيخاً هماً قبيح الوجه، وكيف أنها هربت إليه في جنح الليل، وفيها يقول:

خرجت والليل معتكر لم يهلها أية سلكت

وعيون الناس قد هجعت ودجى الظلماء قد حلكت

لم تخف وجدا بعاشقها حرمة الشهر الذي انتهكت

ورأت لما شفت كمداً أنها في دينها نسكت

وكان يحسن تصوير ما يصفه، وهو إحسان جعله يبرع في تصوير الطبيعة، ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى في تصويره لبستانه، وكان بستاناً غاصاً بالأشجار والرياحين وفيه يقول:

إذا لم يزرني ندمانيه خلوت فنادمت بستانيه

فنادمته خضراً مونقاً يهيج لي ذكر أشجانيه

يقرب لي فرحة المستلذ ويبعد همي وأحزانيه

أرى فيه مثل مدارى الظباء تظل لأطلائها حانيه[1]

---

١ الفند: الكذب

٢ أشرجت هنا: نسجت

ونور أقاح شتيت النبات كما ابتسمت عجباً غانيه

ونرجسه مثل عين الفتاة إلى وجد عاشقها رانيه

وقد مرت بنا في حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة في تصوير حمى أصابته تصويراً يدل على دقته في الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه. ومما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة، وأنه كان يحرص على الألفاظ المألوفة، ولكن مع المتانة والرصانة، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة.

---

١ المدارى: القرون. الأطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد. والاستعارة واضحة